أثر الحياة والعقل على الأخلاقيات والسلوك

إعداد: د. أسماء حسن مصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث:

الافتتاحية: استخدام العقل بالأقوال والجوارح.

هذا البحث بعنوان: أثر الحياة والعقل على الأخلاقيات والسلوك.

يهدف البحث إلى أن أعظم نعم الله على الإنسان نعمة العقل والعلم والتدبر؛ لأنه يميزه على سائر المخلوقات، وينهض بصاحبه إلى منازل الملوك.

مشكلة البحث: تفعيل القول بالعمل، وتحكيم العقل فى الحث على الفضائل، والنهى عن الرذائل؛ وليتكون فى الأرض المجتمع الصالح الذى يريده الله.

منهجية البحث هى: المنهج التحليلى، حيث عرضت بعض الآيات القرآنية، وآراء بعض المفسرين للآيات التى تحمل قضايا موضوع البحث.

أهم النتائج التى توصل إليها البحث هى:

١ ـ أن العقل يقاوم الهوى المذموم.

٢ ــ الحوار إذا لم يلتزم فى كل أحواله وصوره بأسس الحوار وآدابه، قد يؤدى إلى نتائج سلبية، وهى أن ينتهى الحوار بلا فائدة، ويؤدى إلى الإحباط لأحد الطرفين أو كليهما.

٣ ــ من سلبيات الحوار: الرغبة فى مكايدة الطرف الآخر عنادًا وتجاهلًا لمن يحاوره.

٤ ــ ومن إيجابيات الحوار: الحوار المتكافئ الذى يعطى لكلا الطرفين حرية التعبير، ويحترم الرأى الآخر.

٥ ــ من إيجابيات الحوار إثبات الحقيقة حيث هى، لا كما تراها بأهوائنا؛ وذلك يؤدى إلى المحبة وإنكار الذات.

Research Summary

Thesis: using reason in words and with all body organs.

This Research Entitled: The Impact of life and mind on ethics and behavior.

The Research Aims to: the greatest blessing of God on the human is the gift of mind، science and thinking، because it distinguishes human being to other creatures، and let him stand up to the Kings' rank.

Research Problem: activating doing what is said، and reasoning with the induction of virtues، and Prevention of vices، to have a good society on earth which God wants.

Research Methodology: it is an analytical approach، in which some of the Qur'anic verses and the views of some commentators of the verses that carry the research issues in question are presented.

The most important findings of the research are:

1 - That the mind resists reprehensible passion.

2 - If the dialogue does not comply in all forms and conditions of the dialogue basics and manners، which may lead to negative results; and this means it would be a useless dialogue and may lead to the frustration for one or both parties.

3 - The negative aspect of dialogue is the desire for teasing the other party out of stubbornness and disregard against the person who he talks with.

4 - The advantages of the dialogue: the equivalent dialogue، which gives both parties the freedom of speech and respecting the other opinion.

5 - Also from the advantages of dialogue، proving the truth as it is، not as what we like to see; and this leads to love and self-denial.

المقدمة:

من البديهي أن الإنسان كائن حي، مكون من جسم ونفس وعقل، وكل إنسان يعيش في مجتمع معين، ويتفاعل معه في كل شئونه، وهذا يتطلب من الإنسان أن يكون أولًا على جانب من العقل يسمح له أن يتصرف على إمكانياته، ثم دوره في المجتمع الذي يحيا وينتمي إليه في الحياة.

ولذلك من واجب الفرد نحو عقله أن يعمل على تثقيفه وزيادة خبراته في ملائمة الظروف المحيطة به؛ ليساعده ذلك في عمله اليومي؛ لأن الإنسان هو الكائن المكرّم المتفرد بموهبة العقل.

والعقل من أعظم النعم الإلهية على الإنسان؛ لأنه يميزه على سائر المخلوقات، فبه يفكر، ويفهم، ويدرك، وبه ـ أي: العقل ـ وجد ربه واستدل على وجوده،

فالعقل موطن العقيدة، يقول أبو الحسن البصري: "وينبوع الأدب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلًا وللدنيا عمادًا"(١).

فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير، وهذا ثمرة العقل الذي به عرف الله-سبحانه وتعالى، وأسماءه، وصفات كماله.

والعقل بمقتضاه قاوم الهوى، وحث على الفضائل، ونهى عن الرذائل، وينهض بصاحبه إلى منازل الملوك، قال على بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: "لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صيامًا ولا حجًا ولا اعتمارًا، لكنهم عقلوا عن الله موعظة؛ فوجلت منه قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم، وخشعت له جوارحهم، ففاقوا الناس بطيب المنزلة، وعلو الدرجة عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة، وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: "ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرَّين"، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها: "قد أفلح من جعل الله له عقلًا"(٢).

فمنذ أصبح الإنسان قادرًا على التأمل الحر بدأت أفعاله تنبني على ما يراه من آراء في العالم، وفي الحياة الإنسانية فيما خير وما هو شر في نواحيَ كثيرة هامة، ولذلك الفيلسوف يهدف دائمًا إلى أن يتفهم واقعه ويفسره بطريقته الخاصة، ونظرته المتعمقة في الحياة الاجتماعية التي يعيشها الأفراد، وفي المعتقدات التي يعتقدون بها، وأيضًا المعارف المشتركة فيما بينهم، فنجد الفيلسوف يعيش مجتمعه

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن البصري صـ٢ ـ الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، ١٢٩٩ هـ.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية، دار ابن الهيثم، ط الأولى، القاهرة، ٢٠٠٧م. والحديث أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان فصل فى فضل العقل ١٦٢/٤ ح٤٦٦٤.

بكل أبعاده، والحياة بكل جوانبها بالتفسير العقلي الملائم للحياة، وبهذا التفسير العقلي يقود المجتمع إلى ما يراه أصلح وأفضل.

ومن فضل العقل الذي ميز الله-تعالى-به الإنسان عن جميع مخلوقاته جعل طبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة؛ لأن أول ما نزل من آيات القرآن قول الله لنبيه ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1]، فالعلم للإسلام كالحياة للإنسان.

وإنه لمقام عظيم الذي شرف الإسلام به الإنسان، حيث أفاضت آيات الله البينات في تقدير الإنسان، ففضّله الله على جميع مخلوقاته، واصطفاه من كافة كائناته، وكرمه، وعلمه، وأعزه، وقدره، ومن أعظم نعم الله على الإنسان نعمة العقل والعلم والتدبر، فالعقل الإنساني ينظر في الكون، ويتأمل في مخلوقات الله، وفي الإنسان نفسه ليعرف الأسباب التي من أجلها فضّله الله واختاره دون سائر خلقه لحكمة يعلمها الله وحده، وذلك لأن الله-تعالى-خص الإنسان بالعلم والعقل، وأرشده، وهداه، وبصره؛ مما يجعل الخير فيه أغلب من الشر؛ وذلك لما أودعه الله في فطرة الإنسان واستعداده الخلقي من القوى الفكرية والإدراكات العقلية.

وهذا ما سوف أوضحه-إن شاء الله-في هذا البحث المتواضع، راجيةً المولى-عز وجل- أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

هذا،ولقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون مقسمًا إلى: مقدمة، وخمسة مباحث، ثم المباحث إلى مطالب، والخاتمة.

---

(١) سورة العلق الآيات ١ . ٥.

المقدمة: وضحت فيها أن أعظم نعم الله على الإنسان نعمة العقل والعلم والتدبر وبه ـ أي: العقل ـ فضله الله واختاره دون سائر خلقه.

المباحث: قسمتها إلى خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم العقل والحياة

المطلب الأول: تعريف العقل لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: تعريف الحياة لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: العقل وفضله

المطلب الأول: ماهية الهوى وحقيقته.

المطلب الثاني: تعريف الهوى لغة واصطلاحًا.

المبحث الثالث: أدب الحوار والحديث

المطلب الأول: تعريف الحوار لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: أسباب اختلاف الناس.

المبحث الرابع: أسس الحوار

المبحث الخامس: أهمية الحوار وأهدافه وأسس التنوير

المطلب الأول: أهمية الحوار وأهدافه.

المطلب الثاني: أسس التنوير.

أما الخاتمة: فقد وضحت فيها أهم نتائج البحث السلبية والإيجابية.

ثم ذكرت أهم مصادر البحث مرتبة ترتيبًا أبجديًا بعد حذف الألف واللام من اسم المؤلف.

المبحث الأول

مفهوم العقل والحياة

المطلب الأول: تعريف العقل لغة واصطلاحًا

قال -تعالى: ﴿* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾[1].

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية:

يخبر -تعالى- عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله -تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[2]، أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾، أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال رسول الله ﷺ: **"ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم، قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر"**، وهذا حديث غريب جدًا[3].

وذكر الرازي عند تفسيره لهذه الآية أن المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله -تعالى- على الإنسان، وهي الأشياء التي بها فضل الإنسان على غيره، وقد ذكر الله -تعالى- في هذه الآية أربعة أنواع، وهي:

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠.

(٢) سورة العلق آية ٤.

(٣) تفسير ابن كثير، مجلد ٥، ٦ صـ٦٠، مكتبة الصفا، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

النوع الأول: ﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

إن الإنسان جوهر مركب من النفس والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلى، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلى، والنفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث، وهي: الاغتداء، والنمو، والتوليد، والنفس الحيوانية لها قوتان: الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة، فهذه القوى الخمسة، وهي: الغذاء، والنمو، والتوليد، والحس، والحركة حاصلة للنفس الإنسانية، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى، وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي، وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله-تعالى-ويشرق فيها ضوء كبريائه، وأن القوة العقلية أجل وأعلى من القوة الجسمية.

أما النوع الثاني الذي ذكره الرازي من المدائح في هذه الآية قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أن الله-تعالى-سخر الدواب في البر: الخيل، والبغال، والحمير، والإبل له؛ حتى يركبها، ويحمل عليها، ويغزو ويقاتل، وفي البحر سخر الله-تعالى-المياه والسفن وغيرها؛ ليركبها، وينقل عليها، ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم.

والنوع الثالث من المدائح التي ذكرها الرازي عند تفسيره قوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لأن الأغذية إما حيوانية، وإما نباتية، وكلا القسمين إنما يغتذي الإنسان منه بألطف أنواعها، وذلك مما لا يحصل إلا للإنسان.

والنوع الرابع: قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ أنه-تعالى-فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية، مثل: العقل، والنطق، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المديدة، ثم إنه-تعالى-عرضه بواسطة

ذلك العقل والفهم؛ لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم، والثاني هو التفضيل[١].

وهذا التكريم والتفضيل هو العقل الذي كرم به-سبحانه-بني آدم.

وقبل الخوض في التفاصيل عن العقل لابد لنا من تعريفه؛ لأن معرفة الشيء تسبق استخدامه والاستفادة منه، وكما يقول علماء المنطق الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

العقل لغة:

هو العلم أو بصفات الأشياء من حسنها، وقبحها، وكمالها، ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشر الشرين، أو مطلق لأمور، أو لقوة بها يكون التمييز بين القُبح والحُسْن، والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ.

وجمع عقل: عقول، عَقَل يَعْقِل: عقلًا ومعقولًا وعَقَّل، فهو عاقل من عقلاء وعُقَّال، والدواء بطنه يَعْقله ويَعَقُّله: أمسكه، والشيء: فهمه، فهو عقولُ[٢].

وذكر الجرجاني في (التعريفات) معنى العقل بتعريفات كثيرة كما ذكر له أنواع أيضًا هى:

العقل هو:

جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارنة لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله: أنا، وقيل: العقل جوهر روحاني خلقه الله-تعالى-

(١) التفسير الكبير، الإمام الرازي، المجلد الحادي عشر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي صـ١٠٣٣، ١٠٣٤، مؤسسة الرسالة، ط ٦، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

متعلقًا ببدن الإنسان، وقيل: العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل وقيل: العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

وقيل: العقل قوة للنفس الناطقة، وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة، وأن الفاعل في التحقيق هي النفس، والعقل آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع، وقيل العقل والنفس والذهن واحد، إلا أنها سميت عقلًا لكونها مدركة، وسميت نفسًا لكونها متصرفة، وسميت ذهنًا لكونها مستعدة للإدراك.

وذكر الجرجاني أيضًا فى تعريف العقل فقال:

العقل: ما يعقل به حقائق الأشياء، قيل: محله الرأس، وقيل: محله القلب.

العقل الهيولاني: هو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهي قوة محضة خالية عن الفعل، كما للأطفال، وإنما نسب إلى الهيولي؛ لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولي الأولى الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها.

العقل: مأخوذ من عقال البعير يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل، والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

العقل بالملكة: هو علم بالضروريات، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات.

العقل بالفعل: هو أن تصير النظريات مخزونة عند قوة العاقلة بتكرار الاكتساب، بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد لكنها لا يشاهدها بالفعل.

العقل المستفاد: هو أن تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه[١]، فالعقل ضد الحمق، وهو القوة المتهيئة لقبول العلم.

أما تعريفات العقل اصطلاحًا:

فقيل: إن العقل قوة خفية مدركة فطرية في الإنسان، خلقها الله فيه ليكون مسئولًا عن أعماله على أساس قدرته للإدراك والتمييز بين الحق والباطل، بين النافع والضار، بين الخير والشر، بين الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، سواء حملت هذه القوة الخفية اسم العقل، أو اسم القلب، أو اسم العلم[٢].

وقيل: العقل قوة في الإنسان تدرك طوائف من المعارف اللامادية يدرك العقل أولًا ماهيات الماديات أي كنهها لا ظاهرها.

يقول ابن سينا: "العقل يدرك الصورة بأن يأخذها أخذًا مجردًا عن المادة من كل وجه بما يصلح أن يقال على الجميع". "العقل يدرك الأمر الباقي الكلي.. ويدركه بكنهه لا بظاهره"، والعقل يدرك ثانيًا معاني عامة كالوجود [٣]، والجوهر والعرض، والعلية والمعلولية، والغاية والوسيلة، والفضيلة والرذيلة، والحق والباطل.

والعقل أيضًا يدرك ثالثًا علاقات أو نسبًا كثيرة، كالعلاقة بين أجزاء الشيء الواحد، وعلاقات الأشياء فيما بينها، والعدد والترتيب ويدرك العقل رابعًا ما بدئ عامة في كل علم وفي العلوم إجمالًا.

---

(١) التعريفات، السيد الشريف الجرجاني.. تحقيق وتعليق د / عبد الرحمن عميرة ص١٩٦، ١٩٧ عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي بين العقل والوحي د/ عبد العال سالم مكرم ص٧، مؤسسة الرسالة، دار الآفاق، ١٩٩٢م.

(٣) ابن سينا: النجاة نقلاً عن العقل والوجود د/ يوسف كرم ص ٤، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٩م.

ويدرك العقل خامسًا وجود موجودات غير مادية، كالنفس والله وخصائصها الذاتية، وذلك بالاستدلال بالمحسوس على المعقول.

وسادسًا يدرك العقل بالاستدلال يؤلف الفنون والعلوم مما لا مثيل له عند الحيوان الأعجم مع حصوله على المعرفة الحسية [١].

إذن فالعقل هو قوة يفضَّل بها بين حقائق المعلومات.

وقيل العقل: سرَّ روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، ومحله القلب، ونوره في الدماغ، وابتداؤه من حين نفخ الروح في الجنين، وأول كماله البلوغ، ولذا كان التكليف بالبلوغ، هذا هو الصحيح الذي عليه مالك والشافعي ـرضي الله عنهما ـ وهو مراد من قال: هو لطيفة ربانية تدرك به النفس إلخ.

وقيل: هو قوة للنفس معدة لاكتساب الآراء، أي: الاعتقدات. وقيل: هو من قبل العلوم، قال القاضي الباقلاني: هو بعض العلوم الضرورية، وهو العلم بوجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، وجواز الجائزات، ومجاري العادات ـ أي وكالعلم بالأمور التي جرت بها العادة، ككون النار محرقة، والأكل مشبع ـ كالعلم بوجوب افتقار الأثر: المؤثر والعلم باستحالة اجتماع الضدين، وارتفاع النقضين، وهذا تفسير لقول من قال: هو العلم ببعض الضروريات. وعلى هذين القولين فهو من قبيل العرض[٢].

(١) ابن سينا: النجاة نقلاً عن العقل والوجود د/ يوسف كرم صـ ٤.

(٢) الخريدة البهية في العقيدة الإسلامية، لابن البركات أحمد بن محمد بن أحمد الدردير ١١٢٧ ـ ١٢٠١هـ صـ٢٣ إعداد: أ. د/ محمد ربيع محمد جوهري، ط١، ١٤٣١ هـ -٢٠١٠م.

المطلب الثاني: تعريف الحياة لغة واصطلاحًا

وبعد أن عرفنا معنى العقل لغة واصطلاحًا، يمكننا أن نعرف معنى الحياة أيضًا لغة واصطلاحًا.

أولًا: معنى الحياة في اللغة:

فقال الفيروزآبادي: "والحَياةُ والحَيَوْةُ، بسكون الواو: نقيض الموت حَيِيَ، كَرَضِيَ، حَيَاةً، وحَيَّ يَحَيَّ ويَحْيّا.

والحَياة الطيبة: الرزق الحَلالُ، أو الجَنَّةُ. والحَىّ: ضد الميت جمع: أحياء... وأحْياهُ: جعله حيًا... وطريق حَيَّ: بَيْنٌ[(١)].

ثانيًا: معنى الحياة في الاصطلاح:

عرفها الجرجاني، فقال: الحياة: هي صفة توجب الموصوف بها أن يعلم ويقدر. الحياة الدنيا: هي ما يشغل العبد عن الآخر[(٢)].

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادى، باب الواو والياء فصل الحاء صـ ١٢٢٧، ١٢٧٨، مؤسسة الرسالة، ط ٦، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

(٢) التعريفات، الجرجاني . تحقيق وتعليق د/ عبد الرحمن عميرة، باب الحاء، فصل الياء صـ ١٢٨، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

المبحث الثاني

العقل وفضله

بفضل ضرورة العقل يُعلم وجود الله –تعالى، والضرورة ما لا يتطرق إليه الشك، ولا يمكن لعاقل دفعه، وهذه الضرورة تتطلب أقساما ثلاثة: واجب، وجائز، ومستحيل.

أما الواجب لابد من كونه كافتقار الفعل إلى الفاعل، وحيث إنه استقر في النفوس أن الفعل لابد له من فاعل، وأن الفاعل ليس في وجوده شك؛ فثبت بهذا أن البارئ–سبحانه–يعلم بضرورة العقل، حيث إن الجائز ما يمكن أن يكون، ويمكن أن لا يكون، كنزول المطر، وعلمنا أن المستحيل ما لا يمكن كونه كالجمع بين الضدين، فخلص لنا أن عقلنا يدرك الموجودات الطبيعية أولًا بالذات يبدأ بها، ومن جهة إدراك العقل للوجود بما هو وجود، فإن هذا المعنى أو ما يحصل في تصور العقل؛ لأن الوجود هو العنصر المشترك بين الموجودات على اختلافهما، وبين معلومات العقل، كما أن اللون مثلًا هو العنصر المشترك بين مدركات البصر.

فإن معنى الوجود أبسط المعاني وأعمها، وهو الوجه الذي يدرك به العقل كل موجود؛ فيكون الموضوع العام للعقل هو الوجود[١]، فبالعقل نؤكد أن كل ما في هذا الكون أنه لا إله إلا الله، وأنه هو الخالق والموجد، وبالعقل يعرف الفرد ربه، وبالنظر في مخلوقاته يستدل على معرفة ماله–سبحانه وتعالى–من صفات الجلال والكمال، والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحترم العقل وتحض على استعماله، ومن خلاله يصل إلى معرفة ربه–عز وجل، فالقرآن دين العقل بهذه المعاني فهو:

(١) انظر: مجموعة الرسائل، أبي شامة الشافعي صـ٤٧، ٤٨ وأيضًا العقل والوجود، د/ يوسف كرم صـ٩٠، ٩١ مكتبة الثقافة الدينية، مطبعة كردستان العلمية ١٣٢٨ هـ، ط١، ٢٠٠٩م.

هاد للعقل، ومرشد له وقائد، وهو ـ القرآن ـ مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر، وهو لا يناقض العقل، وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما أتى به، والقرآن يطالب دائمًا بالتفكر والتدبر، قال-عز وجل: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

وكثيرًا ما نجد الآيات تُختم بـ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، كل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل.

وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر إنما أراد به الاعتبار، وأراد أن يقول: تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير، أما إذا رأيتم غير ذلك: فإنما العيب في بصركم أو في بصيرتكم، إذ رأيتم غير ذلك: فإن الفساد في عقولكم وفي تفكيركم، وإذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت لانحرافكم، وأن قلوبكم رَانَ عليها الأثم، فضَّلَت، وأن عقلوكم قد صدئت، فأصبحت لا ترى الحق حقًا، ولا الخير خيرًا، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرًا والشر خيرًا، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلًا، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم(١).

من ذلك نتبين أن الدين هاد للعقل، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحي الإلهي، وإذا عمل الإنسان بضد ما يعلم، وضد ما يأمر به غيره، لا يصدر عن إنسان سَوِّي في عقله، ناضج في فكره، إنما هو ضرب من الجنون.

وكما نعلم أن كلمة "تعقلون" تكررت مرات في القرآن مرتبطة بـ "الآيات" التي بينها الله-تعالى-ووجوب تعقلها، كما في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾(٢).

(١) انظر: الإسلام والعقل د/عبد الحليم محمود صـ٢٠، ٢٢ دار الكتب الحديثة (بتصرف)، ١٩٧٢م.
(٢) سورة الحديد من آية ١٧.

وربما كان المقصود منها هنا الآيات الكونية؛ لأنها جاءت بعد قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[١].

وكما نعلم أن الآيات الكونية مجال لعمل العقل؛ لأنها تأتي في مقام التأمل لآيات الله الكونية المبثوثة في عوالم الأفلاك والجماد والنبات والحيوان والإنسان، كما جاء قوله-تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[٢].

ولفظة " العقل " جاءت في الكتاب العزيز منصوصًا عليه بوضوح في كلمة "الألباب"، أي: العقول. إذا نظرنا إلى المعنى المقصود بها كما في قوله-تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[٣]؛ وذلك لأن القصاص وهو قتل نفس من ظاهر اللفظ فكيف يكون حياة؟ وهنا أصحاب العقول، أي: ما يعقله أولو الألباب: أنه إذا قتلت النفس قصاصًا في هذه العقوبة تكون ردعًا للقتلة، وشفاءً لصدور أهل المقتول.

هذا بالإضافة إلى ما جاء به القرآن الكريم عن أصحاب العقول تحت اسم "أولي النهي"، والنُهَى: جمع "نُهْية"، وهي اسم للعقل، سمي بذلك لأنه ينهي

(١) سورة الحديد من آية ١٧.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٤.

(٣) سورة البقرة آية ١٧٩.

صاحبه عما لا يليق بالإنسان أن يفعله، كما سمي "عقلًا" لأنه يعقله ويحجزه عما لا ينبغي[(١)].

وجاء الحديث عن العقل في القرآن باسم "الفوائد" مفردًا ومجموعًا، باعتباره وسيلة من وسائل العلم الأساسية الثلاث: السمع، والبصر، والفؤاد، قال-تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[(٢)].

والقرآن الكريم دعا إلى التفكر، أي: إلى إعمال الفكر، وقال الراغب في "المفردات": "الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان"[(٣)].

فالقرآن دعا إلى التفكر بأساليب شتى، وفى كل المجالات عدا التفكر فى ذاته تعالى؛ لأن التفكير فى ذات الله هو تبديد لطاقة العقل لأنه لا يمكنه ـ العقل ـ إدراكه، بينما تفكر أولو الألباب ــ أى: ذوى العقول الناضجة ــ فى خلق السموات والأرض وما فيهما من روعة النظام، ودقة الإحكام هداهم إلى أن الله ما خلقهما إلا لحكمة، وكذلك ينبغى للعقل أن يتفكر فى آيات الله-تعالى، فى أرضه، وسمائه، وفى شمسه، وبحره، ونجومه، وفيما تشتمل عليه الأرض من حيوان، ونبات، وجبال، وأنهار، وبحار، قال-تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[(٤)]، وبذلك فالكون كله، بما فيه ومن فيه مسرح

(١) انظر: العقل والعلم في القرآن الكريم، د/يوسف القرضاوي صـ١٩، ٢٢، ٢٨(بتصرف)، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٦.

(٣) انظر: مادة "فكر" فى مفردات ألفاظ القرآن صـ٦٤٣.

(٤) سورة الجاثية آية ١٣.

للفكر، والقرآن حافل بالآيات التى تحض على النظر، وتدعو إلى التفكر؛ لأن النظر فريضة، والتفكر عبادة، ولذلك نرى التعبد بالنظر العقلى: وهو الذى يستخدم الإنسان فيه فكره فى التأمل والاعتبار.

قال الإمام الراغب: "النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشىء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرؤية، يقال: نظرت فلم تنظر أى لم تتأمل ولم تتروّ"، فالإنسان يبدأ بالنظر فى نفسه أولًا، ثم فى أقرب الأشياء إليه، قال-تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾[(١)].

ثم ينتقل بنظره إلى ما حوله معتبرًا، لينتقل من المصنوع إلى الصانع، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الكون إلى المكوّن، قال-تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾[(٢)].

يقول الغزالى فى كتابه معارج القدس: "اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء، ولم يثبت بناء ما لم يكن أس، وعلى هذا فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان، ولكونهما متحدين قال-تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[(٣)]، أى: نور العقل، ونور الشرع"[(٤)].

---

(١) سورة الطارق الآيات ٥ . ٨.

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ . ٢٠.

(٣) سورة النور الآية ٣٥.

(٤) الغزالى، معارج القدس ص٥٩ نقلاً عن دراسات فى فلسفة الأخلاق د / محمد عبد الستار ص١٩٤، ١٩٥، ١٩٨١م.

ومن فضل العقل نجد الإنسان ذو العقل الراجح، والعلم الغزير، الذى يستطيع أن يتبين عواقب الأمور بنوع من الحدس العقلى يمكن ألا يقدم على الفعل إلا إذا شعر أن عاقبته ستكون خيرًا.

ولا شك أن للتجارب والخبرات لها دور فى ذلك، والعقل غايته الحق وقد يدرك الإنسان بالحدس العقلى أن هذا العمل خير، وقد يقره على ذلك ضميره.

فإذن فائدة العقل وثمرته: هو الوسيلة التى تفاعلت مع الأدلة على وجود الله ففهمها أو عجز عنها، ومن ثم أمر بطاعة الله وامتثال أمره، وصدَّ معجزات الرسل، وأمر بطاعتهم وقاوم الهوى، فرد غريبه، وأدرك الأمور الغامضة وحث على الفضائل، ونهى عن الرذائل، أو غلبة عجزه وهواه، أو سبقه أمر الله فضل بصاحبه عن طريق الحق، وسلك به سبيل الغواية.

فالعقل-إذن- هو الحاكم على تصرفات الإنسان؛ ولذلك فمن صبر على مضيض مشاورته اجتنى حلاوة المنى فى عواقبه.

وكما نعلم أن النفس مجبولة على حب الهوى، وهى شرعًا مأمورة بمجابهة هذا الهوى إن كان مذمومًا فليوضح الباحث ماهية الهوى وحقيقته فيما يلى.

المطلب الأول: ماهية الهوى وحقيقته

لقد ذكرت أن من أجَّل ما أنعم الله به على الإنسان هو العقل، ومن ثمرته عُرف الله-سبحانه وتعالى-وأسماؤه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله وملائكته، وآمنوا باليوم الآخر، وبه عُرفت آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته، وبه أيضًا امتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه، وبه أيضًا يقاوم الهوى ويحث على الفضائل، وينهى عن الرذائل.

ولم أقصد بمعنى الهوى شهوات الحس فقط، ولكن قصدت كل من يغلبه هواه مطلقًا في جميع مناحى الحياة.

وسأبدأ بتعريف الهوي لغة واصطلاحًا:

أولًا: تعريف الهوي لغة:

يقول الفيروزآبادي: "هَوَى، فهو هَو: أحَبَّه، و ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[(١)]: ذهبت بهواه وعقله، أو استهامته وحيرته، أو زَيَّنتْ له هواهُ"[(٢)].

وعرفه الجرجاني فقال: الهوي: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرعن "وقيل: ميل النفس إلى الشهوات، واستعمل في الميل"[(٣)].

ثانيًا: تعريف الهوى اصطلاحًا:

الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحب لها لما يريده، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه فلا ينبغي ذم الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أن الغضب لا يذم مطلقًا ولا يحمد مطلقًا، وإنما يذم المفرط من النوعين.

وقد قيل: الهوى كمين لا يؤمن.

قال الشعبي: وسمي هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه، ومطلقه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة ويحث على نيل الشهوات عاجلًا... والهوى يعمى صاحبه من ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهي عن لذة تعقب ألما، وشهوة

(١) سورة الأنعام من آية ٧١.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي باب الهاء فصل الهاء صـ ١٣٤٧، مؤسسة الرسالة ط٦، ١٤١٩هـ. ١٩٩٨م.

(٣) التعريفات، الجرجاني، باب الهاء فصل الواو صـ٣١٤، عالم الكتب ط١ ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

تورث ندمًا فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب"[١].

وبعد بيان مقصود الهوى نرى أهمية العقل الذي أودعه الله-تعالى-في الإنسان وفضله على كثير ممن خلق، فأسجد له الملائكة، وقد ميزه الله بمزايا كثيرة، منها القدرة على الإيمان بالغيب، والإيمان بما لا تدركه الحواس؛ فصار يؤمن بالله على الغيب، ويؤمن به-سبحانه-على غير شبيه مما تدركه الحواس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

إن الله-تعالى-لم يخلق العقل في الإنسان هباءً، ولكنه خلقه ليشكل واقع الكائن البشري كله، ليرفعه إلى المكان اللائق به.. الذي فضله الله به على كثير ممن خلق... يرفعه من كل ثقلة تقعد به عن الصعود إلى تلك المكانة العالية ومحاولة الاستقامة عليها، سواء كانت ثقلة الشهوات اللاصقة بالطين، أو ثقلة "الران" الذي يرين على الأرواح، أو ثقلة "الضرورات" التي تقهر الإنسان وتذله لطغاة الأرض المتجبرين، "فالعقل يرفع الإنسان، فردًا، وجماعة، وأمة؛ ليتكون في الأرض المجتمع الصالح الذي يريده الله، ولا يتم هذا كله إلا أن يستخدم الإنسان عقله ويحكمّه في كل أمور حياته بالبعد عن الشر والفساد [٣].

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم الجوزية صـ٣٢٢، دار ابن الهيثم، ط١ سنة ٢٠٠٧م، وراجع ذم الهوى لابن الجوزي صـ ١٢، ١٣ (بتصرف)، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٢م.

(٢) سورة الشوري من آية ١١.

(٣) استوحيت المعنى من كتاب لا إله إلا الله، محمد قطب صـ٢٠، دار الشروق ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

وإذن فلا مجال للعواطف والميول والرغبات لكي تزاحم العقل في توجيه سلوك الإنسان؛ لأنها تخرجه ـ حينئذ ـ عن طبيعته العاقلة؛ لأن بين العقل والشهوات ـ بجميع أنواعها ـ حربا طاحنة ينبغي أن ينتصر فيها العقل ويمحق جنود الشهوات.

وإذا كانت الغلبة للعقل سالمة الهوى وكان من خدمه وأتباعه، كما أن الغلبة إذا كانت للهوى صار العقل أسيرًا في يديه محكومًا عليه، ولما كان العبد ـ الإنسان ـ لا ينفك عن الهوى ما دام حيًا ـ فإن هواه لازم له ـ كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن أماكن الهلاك إلى مواطن الأمن والسلامة [(١)].

ودليل ذلك: أن الله–سبحانه وتعالى–لم يأمر عبده بصرف قلبه عن هوى النساء جملة، لكن أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع.

من ذلك نرى ميزة العقل الذي قاوم الهوى، واجتنب نواهيه وحث صاحبه على الفضائل.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: "ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين"[(٢)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: قد أفلح من جعل الله له عقلًا.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه: ولد لكسرى مولود، فأحضر بعض المؤدبين، ووضع الصبي بين يديه، وقال: ما خير ما أوتي هذا المولود؟ قال: عقل يولد معه،

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم الجوزية صـ١٤، دار ابن الهيثم، ط١، سنة ٢٠٠٧م (بتصرف)، ١٩٦٢م.

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان فصل فى فضل العقل ١٦٢/٤ ح ٤٦٦٤.

قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدب حسن يعيش به في الناس قال: فإن لم يكن؟ قال: فصاعقة تحرقه. وأنشد بعضهم في ذلك:

ما وهب الله لامرئ هبة أحسن من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فإن فقدا ففقده للحياة أجمل به[1]

وحقًا أن أفضل ما أُعطى الإنسان وفُضِّل به عقل يسوس جسده، ولا تصلح الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

ونقول لمن يغلبه هواه في أمور الحياة: عليه بالعزيمة والصبر وقوة النفس، هم أنفع له من لذة موافقة الهوى؛ لأن الإنسان أُعطى العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه، أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم أحسن منه، و"أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين، حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده"[2].

حقًا إن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يدخل على قلب الإنسان يفسده، حتى يقع فيما يغضب الله سواء في عمله أو عبادته وسائر حياته، يفسدها بالتزين له؛ حتى يوقعه في الشر والمعصية.

---

(١) روضة المحبين، ابن القيم الجوزية ص١٣.

(٢) المرجع السابق ص٣٢٥، وراجع ذم الهوى، ابن الجوزي ص٣١٣ (بتصرف).

ولهذا فإن الله-سبحانه وتعالى- جعل الهوى مضادًا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مضادًا لمتابعة رسله-عليهم السلام، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثير في القرآن، كقوله-تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[١]، وقوله-تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[٢]، ونظائره في القرآن كثير، كما شبه الله-تعالى-أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله-تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[٣]، وبالحمر تارة كقوله-تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾[٤].

وليس فقط لمن يتبع هواه تكون هذه الأوصاف، ولكن الله-تعالى-قال فيهم ليس أهلًا لمن يتبع هواه أن يطاع، ولا يكون إمامًا، ولا متبوعًا، فإن الله-سبحانه وتعالى- عزله عن الإمامة ونهي عن طاعته[٥].

أما عزله عن الإمامة فقال الله-سبحانه وتعالى- لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٦]، أي: لا ينال عهدي بالإمامة ظالمًا، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله-تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٧].

---

(١) سورة القصص من آية ٥٠.

(٢) سورة البقرة من آية ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف من آية ١٧٦.

(٤) سورة المدثر آية ٥٠، ٥١.

(٥) روضة المحبين، ابن القيم الجوزية صـ ٣٢٥ (بتصرف شديد).

(٦) سورة البقرة من آية ١٢٤.

(٧) سورة الروم من آية ٢٩.

وأما النهي عن طاعته فلقوله-تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1].

وبعد أن وضحت أن سبب الانحراف والضلال واتباع الهوى هو عدم العمل بمقتضى هدى العقل السليم، حيث القوة الخفية التي خلقها الله في الإنسان؛ ليكون مسئولًا عن أعماله على أساس قدرته للإدراك والتمييز بين الحق والباطل، بين الحسن والقبيح، بين الخبيث والطيب؛ فسأوضح في الصفحات التالية استخدام العقل في الحوارن وما ينبغي أن يتحلى به الإنسان أثناء حواره.

المطلب الثاني: أدب الحوار والحديث

تمهيد:

من خلال الأقوال والأفعال يكون السلوك القويم والخُلق الرفيع في التعامل مع الغير في كافة مجالات الحياة، ومع كل أنواع البشر: مسلمين، وغير مسلمين، والأدب في الحوار والحديث، سواء جدال أو مناقشة، فهو من أجل الوصول إلى الحق، عن اقتناع عقلي، وأسلوب الحوار والجدال في القرآن الكريم يمتاز بشموله ما لا يحصى من المسائل، وسأوضح المبادئ والآداب التي جاء بها الإسلام لضبط المحاورات والمناقشات التي تدور بين الناس.

تبادل الفكر هو طبيعة البشر، وسنة الحياة الإنسانية، ومهما تعدد المجتهدون، وتباينت آراؤهم فلابد من أداة للتلاقي، والعقلاء يسعون إلى الوصول إلى الحق عن طريق الحوار؛ لأنه وسيلة للتقارب، وأسلوب للتفاهم، وأُعرف أولا بمعنى الحوار قبل أن أُوضح مبادئه وآدابه.

(١) سورة الكهف من آية ٢٨.

تعريف الحوار لغـة:

والمحاوَرَةُ والمحْوَرَةُ والمحُورَةُ: الجواب، كالحَوِيرِ والحَوارِ، ويكسر، والحِيرَةِ والحُوَيْرَةِ ومراجعة النطق، وتَحاوَرُوا: تراجعوا الكلام بينهم...والتَّحاوُرُ: التَّجَاوُبُ[١].

أما تعريف الحوار اصطلاحًا:

فالجدل في الأصل من الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: الجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب، واللحظة الجدلية هي: الانتقال من حد إلى آخر مناقض له، أو هي الانطلاق الفكري لتأثير حاجته[٢].

وبذلك يكون الحوار ما يتبادله طرفان متخالفان ـ في موضوع ما ـ ينتصر كل منهما لرأيه، وكل يقدم أدلته على ما يعتقده حتى يلتقي الطرفان على رأي واحد، وبذلك يكون حوار العقلاء، طالما كان الحوار بناءً يُعلى من قيمة العقل للوصول إلى الحق، بعيدًا عن اللعن القبيح أو الكلم السيء.

والحوار له أساليب متعددة وأنواع، فمن أساليب الحوار الجدل والمناظرة والندوة. ومن أنواع الحوار ما ينتهي إلى التسليم والإذعان، ومنه ما ينتهي إلى المكابرة والتمرد، ومنه ما ينتهي إلى الحسرة والندم؛ وذلك لأن أسلوب المحاورة يقوم على المواجهة، والمقصود من الجدل أو المجادلة أو المحاورة إلزام الخصم، والتغلب عليه عن طريق إقامة الحجة، والإتيان بالدليل الواضح، والبرهان الساطع[٣]؛ ولذلك يمكن للباحث معرفة أسباب اختلاف الناس، ثم ما هي أسس الحوار السليم كما أمرنا به الإسلام؟ فيما يلي بيان ذلك.

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، باب الراء، فصل الحاء صـ ٣٨١.

(٢) هامش التعريفات، الجرجاني صـ ١٠٦ نقلاً من النجاة لابن سينا صـ ٣٠٢، ١٣٩٧ هـ.

(٣) أدب الحوار في الإسلام، د/ محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، نهضة مصر للطباعة والنشر ط ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

أسباب اختلاف الناس:

قد اقتضت حكمة الله-سبحانه وتعالى- في خلقه، أن يكون الناس مختلفين، وذلك الاختلاف -سواء في شئون دينهم أو في شئون دنياهم- أمر قديم، وسيبقى إلى أن تقوم الساعة، ويرث الله الأرض ومن عليها، وهذا الاختلاف من أجل الوصول إلى الحق والصواب، قال-تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

قال ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين: يخبر-تعالى-أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: ولا يزال الاختلاف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم... وقال عطاء: " ولا يزالون مختلفين" يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، يعني: الحنفية[2].

وقال الإمام الرازي: "والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال... إلا أنا نذكر هاهنا تقسيمًا جامعًا للمذاهب، فنقول: الناس فريقان: منهم من أقر بالعلوم الحسية، كعلمنا بأن النار حارة، والشمس مضيئة، والعلوم البديهية، كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان، ومنهم من أنكرهما، والمنكرون هم السوفسطائية، والمقرون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم ... وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حد لها ولا حصر... فثبت أن زوال الاختلاف في الدين وحصول

(١) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.

(٢) تفسير ابن كثير، المجلد ٣، ٤ صـ ٢١٠، مكتبة الصفا ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، بتصرف.

العلم والهداية لا يحصل إلا بخلق الله-تعالى، وهو المطلوب"[١]. قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: قال الحسن البصري في رواية عنه: وللاختلاف خلقهم... وعن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[٢]، وقيل: للرحمة خلقهم... ولم يخلقهم للعذاب... ويرجع معنى هذا القول إلى قوله-تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣]، وقال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾... فقيل له: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه.

روي عن ابن عباس أنه قال: خلق الجنة، وخلق لها أهلًا، وخلق النار، وخلق لها أهلًا، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه:

الأول: الدلالة القاطعة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما في العبد إلا بتخليق الله-تعالى.

الثاني: أن يقال: إنه-تعالى-لما حكم على البعض بكونهم مختلفين، وعلى الآخرين بأنهم من أهل الرحمة، وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك، وإلا لزم انقلاب العلم جهلًا وهو محال.

الثالث: أنه-تعالى-قال بعده: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وهذا تصريح بأنه-تعالى-خلق أقوامًا للهداية والجنة، وأقوامًا آخرين

(١) تفسير الإمام الرازي (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب) المجلد التاسع ١٧- ١٨ صـ٦١: ٦٣، بتصرف شديد.

(٢) سورة هود: الآية ١٠٥.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

للضلالة والنار، وذلك يقوي هذا التأويل وهو أنه خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف[١].

ومن تفسير الآيات الكريمة السابقة يرى الباحث أن الاختلاف بين الناس حقيقة وحكمة من الله، سواء في القضايا الدينية أو الدنيوية، وله أسباب متعددة، وبواعث كثيرة منها الظاهر الجلي، ومنها الباطن الخفي.

ومنها: ما يكون الدافع إليه: معرفة الحقيقة على الوجه الأكمل والأوفق، وإقامة الأدلة والبراهين، (وهذا ما يسمى في عُرف علماء البحث بالمناظرة أو الجدل)[٢].

ومعنى الجدل في اللغة: المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدل الحبل، أي: أحكم فتله، كأن كلا المتجادلين يفتل الآخر عن رأيه[٣]، وجاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي أيضًا: جَدَلَهُ يَجْدُلُه ويَجْدِلُهُ: أحكم فَتْلَهُ.

الجدل في الاصطلاح:

هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه: إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان، بمعنى أنه المنازعة، لا لإظهار الصواب، بل لإلزام الخصم.

وقيل: هو علم يقوم على مقابلة الأدلة لإظهار أرجح الأقوال.

---

(١) راجع التفسير الكبير، الرازي المجلد التاسع (١٧ ـ١٨) صـ ٦٣، وراجع أيضًا تفسير ابن كثير المجلد ٣، ٤ صـ ٢١٠، بتصرف شديد.

(٢) أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي صـ٨.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز الفيروزآبادي جـ٢صـ ٣٧٣، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

والجدال: عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، أي: علم يقتدر به على حفظ أي وضع يراد، ولو باطلًا، وهدم أي وضع يراد، ولو حقًا[١].

والذي يؤدي إلى الاختلاف بين الناس أيضًا منها: ما يكون الدافع إليه سوء النية، واللجاج، والغرور، والتباهي، وهذا ما يمسى بالمكابرة، والمعاندة في المخاصمة، واتباع الهوى، والاستبداد بالرأي، والتمادي في السفسطة التي تبعد العقل عن جادة الصواب، وتدفع القلب إلى متاهات الآراء المنحرفة والأفكار الضالة[٢]، وهذا ما يسميه الإمام الغزالي بالجدل المذموم.

أهم الأسباب الظاهرة للاختلاف بين الناس:

١ ـ عدم وضوح الرؤية والفهم للموضوع من جميع جوانبه؛ فكُل يفهم من زاوية معينة، تختلف عن جهة الآخر... وقد قال الحكماء قديمًا: إن الحق لم يصبه الناس من كل وجوهه، ولم يخطئوه من كل وجوهه، بل أصاب بعضهم جهة منه، وأصاب آخرون جهة أخرى. وقد مثلوا لذلك بجماعة من العميان، انطلقوا نحو فيل ضخم، فوضع كل واحد منهم يده على قطعة من جسد الفيل، ووصفه بالصورة التي تصورها، فقال الذي وضع يده على رجل الفيل: إن هذا الحيوان هيئته كالنخلة الطويلة المستديرة. وقال الذي وضع يده على ظهر هذا الفيل: إن هيئته أشبه ما تكون بالهضبة العالية، والأرض المرتفعة...وهكذا كان كُلٌّ منهم صادقًا في وصفه تبعًا لما لمسه، ولكنه من ناحية تكذيبه لغيره مُخْطِئ... وهذا اللون من أيسر ألوان الاختلاف؛ لأنه يمكن أن يضعف، ويتلاشى، أو يزول بعد معرفة الحقيقة

(١) راجع التعريفات للجرجاني، باب الجيم، فصل الدال، صـ١٠٦، عالم الكتب، وراجع أيضًا أدب البحث والمناظرة: أحمد مكي صـ٥ جمعية النشر والتأليف، بتصرف.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي صـ ٢٢٧، ط الشعب.

كاملة، وبعد معرفة المسألة من كل وجوهها، وبعد أن يظهر موضوع النزاع، ولذا قالوا: "إذا عُرفَ موضعُ النَّزاع بَطلَ كُلُّ خلاف"(١).

٢ ـ التقليد الأعمى والعقيم للآخرين دون دليل أو برهان:

وقد نعي وعاب القرآن الكريم على الكافرين والغافلين والضالين والجاهلين تقليدهم سواهم من الآباء أو الرؤساء... ذلك في قوله-تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾(٢). قال ابن عباس: نزلت في اليهود، وذلك حين دعاهم رسول الله إلى الإسلام، فقالوا: نتبع ما وجدنا عليه آباءنا(٣).

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية إن الله-تعالى-أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة، فهم قالوا لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا، فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد... وذكر: أنك إذا قلدت من قبلك، فذلك المتقدم كيف عرفته؛ أعرفته بتقليد أم لا بتقليد؟ فإن عرفته بتقليد لزم إما الدور وإما التسلسل، وإن عرفته لا بتقليد بل بدليل، فإذا أوجبت تقليد المتقدم وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد؛ لأنك لو طلبت بالتقليد... وكان المتقدم طلبه بالدليل كنت مخالفًا له؛ فثبت أن القول بالتقليد يفضي ثبوته إلى نفيه؛ فيكون باطلًا... ثم ذكر وقال أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال أن الله-تعالى-ذكر هذه الآية عقيب الزجر عن إتباع خطوات الشيطان، فالله-تعالى-بترتيب

(١) أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي صـ ٨ بتصرف شديد.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٠.

(٣) انظر: التفسير الكبير الرازي، المجلد الثالث ص. ٦، صـ ٦ وأيضًا تفسير ابن كثير، مجلد ١. ٢ صـ ٢٤٢.

آياته هكذا ينبهنا أنه لا فرق بين متابعه وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد، وهو أننا نترك التعويل على ما يقوله الغير من غير دليل[١].

وهكذا يدعونا الله-تعالى-إلى الأخذ بالدليل والبرهان حتى لو كان الذي نأخذ عنه آباءنا وأسلافنا؛ لأننا بتقليدنا إياهم لا نعلم كونهم محقين أو غير محقين، ولابد للمعرفة من دليل وبرهان، وهو ما يدعونا إليه دائمًا القرآن الكريم.

٣ ـ التعصب الممقوت للرأي، والانقياد للهوى والمنافع الخاصة، والنفس الأمارة بالسوء، والحسد، والعناد.

لقد حكى لنا القرآن أن بعض المشركين كانوا متأكدين من صدق الرسول ﷺ فيما يُبلِّغُ عن ربه، ولكن العناد والعصبية والأحقاد دفعتهم إلى تكذيبه-عليه الصلاة والسلام، وكل ذلك حملهم على أن يخالفوه بغيًا وظلمًا.

فالله-تعالى-يقول لوصف هذه الحقيقة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٢]، قال الإمام بن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: فأبو جهل يقول للنبي ﷺ: نحن لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، وعندما سئل عن النبي ﷺ قال: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو هاشم باللواء، وبالسقاية، والنبوة، فماذا يبقى لسائر قريش؟! والله إني أعلم أنه نبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعًا؟! فكان دافع العصبية والأحقاد سبب خلافهم في بعثة الرسول وليس سوء ظنهم به، أو تكذيبهم له؛ ولذلك لم ينتفعوا بما جاء به الرسول ﷺ من العلم؛ لأن نفوسهم مريضة، وقلوبهم عَمِيَةٌ عن الحق والعلم، وذلك مثل المطر لا تستفيد منه إلا الأرض

(١) انظر: التفسير الكبير الرازي، المجلد الثالث ٥. ٦.

(٢) سورة الأنعام آية: ٣٣.

الطيبة النقية، وكذلك العلم لا يستفاد به ومنه إلا أصحاب النفوس الصافية، والقلوب الواعية، والأفئدة المستقيمة، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول في حديثه الصحيح: "**العلم علمان: علم في القلب، فذلك هو العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم**"(١).

ثم ذكر الرازي عند تفسيره: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أن المعنى: أي: لا يخصونك بهذا التكذيب، بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقًا، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾، والمراد: أنهم يقولون في كل معجزة غنها سحر، وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الإطلاق.

فكان التقدير: إنهم لا يكذبونك على التعيين بل القوم يكذبون جميع الأنبياء والرسل، والله أعلم (٢).

تعقيب: يمكن القول إن كثيرا من الخلافات التي تدور بين الناس سببها التعصب الذميم، والانقياد الشخصي للهوى والمنفعة الخاصة؛ وذلك سببه اختلاف العقول والأفهام لفهم الموضوع الذي يدار حوله الحوار للوصول إلى الحق دون عناد ومكابرة، وهذا ما سيوضحه الباحث من أسس الحوار وصولًا إلى الحق ومنفعة الناس.

(١) الحديث رواه الحافظ أبو بكر الخطيب وابن عبد البر النمري في كتاب العلم. راجع تفسير ابن كثير جـ٣صـ ١٥٠، ١٥١ (بتصرف شديد) وانظر: التفسير الكبير الرازي، المجلد السادس صـ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) انظر: التفسير الكبير، الرازي، المجلد السادس صـ ١٦٩.

المبحث الرابع

أسس الحـــوار

الحوار من ألزم واجبات العقل، وآكد ضرورات الفكر، وسبق أن وضحت أن الاختلاف بين الناس في شئون دينهم أو دنياهم، واختلافهم في اتجاهتهم وأهدافهم وآمالهم أمر قديم، وسيظل إلى يوم القيامة، كما وضحت أن لهذا الاختلاف أسبابًا كثيرة، كما ذكرت جانبًا منها.

وقد حدد الإسلام بعض المبادئ والأسس التي تنظم هذه الخلافات والمحاورات التي تحدث بين الناس وما يجعلها تدور في إطار من المنطق السليم، والفكر القويم؛ ليكون هدف هذه المحاورات هو الوصول إلى الحق ومنفعة الناس، أذكر بعض المبادئ والآداب التي جاءت بها شريعة الإسلام لضبط المجادلات والحوارات بين الناس منها:

١ ـ التزام الصدق، وتحري الحقيقة بعيدًا عن الكذب والسفسطة والأوهام[(١)]:

وهذا المبدأ ساقه لنا القرآن الكريم في محاورة سيدنا موسى–عليه السلام–مع فرعون عندما أمره الله–تعالى–أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده، ويترك الظلم والطغيان ففي سورة الشعراء (الآيات من ١٠ـ ٤٨) كانت محاورة موسى–عليه السلام–يظهر فيها صدقه وشجاعته وفطنته وذكاؤه، حيث بدأ تحاوره مع فرعون أن ذكَّره بأنه تربى في قصره، ورعاه وهو طفل، ثم كبر وفعل فعلته الفظيعة، عندما قتل رجلًا من شيعة فرعون، وكان بذلك من الجاحدين للنعمة التي أنعمها عليه فرعون في طفولته، وفي صباه، فهل هذا جزاء الإحسان إليه؟ وتوهم فرعون أنه بذلك قد قطع طريق الإجابة على موسى، لكن موسى رد ردًا صادقًا

(١) أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي صـ ١٣.

حكيمًا وقال: أنا لا أنكر هذه التربية، فقد كانت لأسباب خارجة عن قدرتك، ولا أنكر أنني قد فعلت هذه الفعلة وقتلت رجلًا من شيعتك، ولكن ذلك قبل أن يشرفني الله-تعالى-بالرسالة، كما كنت أجهل أن هذه الوكزة ستؤدي إلى قتله، ولم أكن أقصد قتله، وإنما تأديبه ومنعه من ظلم غيره، وبعد ذلك توقعت منكم الشر، فقررت الهرب خوفًا على نفسى منكم، فوهبني الله علمًا نافعًا، وجعلني رسولًا.

وأضاف موسى في رده على فرعون ردًا آخر فيه توبيخ وتهكم عندما قال له: وهل استعبادك لقومي وقتلك لرجالهم، واستبقاؤك لنسائهم هل تعُدُّ هذا نعمة أنعمت بها على؟ كلاَّ، إن هذه نقمة لنا جميعًا، فأنا واحد من قومي، يؤلمهم ظُلمهم وتعذيبهم[1].

وبهذا الحوار الصادق، والجواب التوبيخي المقْنع أفحم موسى فرعون وجعله يُحَوِّلُ الحوار إلى شيء آخر حكاه القرآن، عندما قال فرعون بكل غرور لموسى: وما ربُ العالمين الذي جئت يا موسى تطالبني بعبادته؟ ـ وذلك أنه يقول لقومه: (ما علمت لكم من إله غيري)، (فاستخف قومه فأطاعوه)؛ لأنهم كانوا يجحدون الصانع-جلا وعلا-ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون[2].

وهنا يرد موسى بكل شجاعة وصراحة وصدق: ربنا وربك هو خالق السماوات والأرض وما بينهما من أجرام وكائنات، ويجب عليكم الإيمان به إيمانًا يقينًا لا يداخله أي شك، وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله من حاشيته؛ ليشاركوه التعجب مما قاله موسى، وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه فيقول لهم: ألا تستمعون

(١) انظر: تفسير ابن كثير جـ٦ص ٢٩، بتصرف شديد مكتبة الصفا.

(٢) المرجع السابق بتصرف وراجع أيضًا تفسير مفاتيح الغيب، الإمام الرازي المجلد ١٢ جزء ٢٤ ص١١١.

إلى هذا القول الغريب الذي لا عهد لنا به ولا نقبله، ولا نصبر عليه. ولكن موسى -عليه السلام- لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون، بل أَكَّدَ لهم وحدانية الله وقدرته على كل شيء قائلًا: وهو ربنا وربكم ورب السماوات والأرض، فكيف تتركون عبادته وتعبدون فرعون وهو مخلوق مثلكم؟! ولا يملك فرعون عندئذٍ إلا الرد الدال على عجزه، فيقول مخاطبًا كُبراء قومه على سبيل السخرية من موسى: هذا الذي تكلم بهذا الكلام مجنون، فاحذروا أن تصدقوه، أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًا غيري، ولكن موسى لم يضطرب من قول فرعون، بل رد بكل صدق وشجاعة: ربنا وربكم رب المشرق الذي تطلع منه الشمس، ورب المغرب الذي تغرب فيه الشمس، ورب الكون كله ـ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسيارتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها(١).

وهكذا انتقل بهم موسى ـ عليه السلام ـ من دليل إلى دليل على وحدانية الله -تعالى- وقدرته ومن حجة إلى حجة ومن أسلوب إلى أسلوب.

ولما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، فعدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وهنا ينتقل في هذا الحوار إلى أسلوب التهديد والوعيد ـ بعدما أحس بهزيمته ـ شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة، وقال ـ فرعون ـ بثورة وغضب: لئن اتخذت يا موسى إلهًا غيري ليكون معبودًا دوني لأجعلنك من المسجونين، وهذا جزاء كل من يتمرد عليَّ.

(١) تفسير مفاتيح الغيب، م١٢ صـ٢٤ صـ١١٢ وأيضًا تفسير ابن كثير جـ٦صـ ٣٠، بتصرف شديد واختصار.

ولكن موسى لم يخف من هذا التهديد، وذكر ـ عليه السلام ـ كلامًا مجملًا؛ ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده، بأن يُجرَّ فرعون إلى الكلام في شأن الرسالة التي جاء من أجلها، وهي دَعْوتُه إلى عبادة الله –وحده– فيقول له: أتجعلني في السجن، حتى ولو جئتك بمعجزة خارقة للعادة تشهد بصدقي وبأني رسول من رب العالمين؟ فيوافق فرعون، وهنا يكشف موسى ـ عليه السلام ـ عن بعض المعجزات الحسية التي أيده الله بها؛ فيُلْقي العصا على الأرض، فتنقلب حية عظيمة، ويخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء بياضًا يخالف لون جسمه، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار، وليس بها ما يشير إلى المرض أو السُّوء.

وهنا أحس فرعون بالرعب يسري في جسمه، وأن ألوهيته المزعومة قد انكشفت بعد أن زلزلته معجزات موسى، وكادت تجعل الناس يؤمنون به وبربه الإله الواحد، فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه، فالتفت إليهم، وأخذ يُحرضهم على مقاومة موسى وذكر فيها أمورًا ثلاثة: هي أنه ما هو إلا ساحر بارع في السحر، ويريد أن يخرجكم من أرضكم التي نشأتهم عليها، وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله ـ لأنه معلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور، فنفرهم عنه بذلك، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق، وثالث أمور التنفير قال فرعون: فبأي شيء تشيرون عليّ لكي نَتَغلَّب عليه؟ فأشاروا عليه بأن يجمع مهرة السحرة لمبارزة موسى.

ومشاورة فرعون لقومه يظهر نفسه بها أنه متبع لرأي قومه ومنقاد لقولهم، وهذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو ـ واجتمع السحرة، وأغراهم فرعون بالعطايا الثمينة إن تَغَلَّبوا على موسى، وكان ذلك يوم عيد لهم، وألقى السحرة بسحرهم، وألقى موسى عصاه فابتلعت بسرعة كل ما فعلوه من سحر،

ورأي السحرة بأعينهم-ومعهم فرعون والحشود من خلفهم- كل ذلك؛ فأيقنوا أن الذي فعله موسى ليس سحرًا، بل هو شيء فوق طاقة البشر، وخارج عن قدرتهم، فآمنوا برب العالمين، رب موسى وهارون(١).

ومن المحاورة البليغة التي حكاها لنا القرآن الكريم بين موسى وفرعون يتضح أن الحوار البَّناء هو الذي يقصد به الوصول إلى الحق والعدل ومكارم الأخلاق، وأنه يقوم على الصدق في القول، والعفاف في السلوك، وأنه يصدر عن نفس طاهرة نقية من الغل والحسد، وقلب لا يعرف الخداع والغش، وينبع من عقل راجح يكشف بفطنة وذكاء عن الباطل والزور والغرور والبهتان.

أما الكذّابون وأصحاب الهوي والمصالح الخاصة، لا يقيمون دعاواهم إلا على الكذب والغرور والزور والبهتان.

٢ ـ التزام الموضوعية:

ونعني بها عدم الخروج عن الموضوع الذي هو محل النزاع أو الخلاف؛ لأننا في هذه الأيام نجد كثيرا من الناس إذا ناقشوا غيرهم في موضوع معين فإنهم يتعمدون أن يسلكوا أسلوب توهان الحقيقة، وهو ما يسمى بخلط الأوراق، بحيث لا يدري العقلاء في أي شيء هم مختلفون مع غيرهم، ومن المجادلات والمحاورات والخلافات التي دارت بين الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وبين أقوامهم ترى أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان جوابهم على مخالفيهم منتزعًا من أقوال هؤلاء المخالفين، دون أي خروج عن موضوع النزاع (٢)... ويحكي لنا القرآن الكريم ما

(١) تفسير مفاتيح الغيب، م١٢ صـ ١٣: ١٦ وراجع تفسير ابن كثير جـ٦صـ ٣٠، ٣١ بتصرف واختصار شديدين.

(٢) أدب الحوار في الإسلام، د/ سيد طنطاوي صـ٢٠ بتصرف.

قال قوم نوح ـ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، كان رده موضوعيًا بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾[1].

وعندما جادل أعداء الحق النبي ﷺ في كثير من القضايا ساق القرآن شبهاتهم بأمانة، ثم لقن النبي الجواب الذي يقطع دابر هذه الشبهات، وكان الجواب منتزعًا من واقع كلامهم، ودون أي خروج عن موضوع الخلاف بينه وبينهم.

والقرآن الكريم يحكي جانبًا من هذه الشبهات وكيف رد عليها بما يزهقها، قال-تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾[2].

فهذه الآيات التي توضح لنا التزام الموضوعية، وعدم الخروج عن الموضوع، فإننا نجد في الإجابة عن شبهات الضالين الرد الحاسم، والقول الفصل، دون خروج عن موضوع الخلاف الذي يسلكه في هذه الأيام كثير من الناس أثناء محاوراتهم، سواء في المسائل الدينية أو الدنيوية.

٣ ـ إقامة الحجة بمنطق سليم وبرهان ساطع[3]:

نرى ذلك في القرآن الكريم في قصة "نمروذ بن كنعان" الكافر المغرور، الذي جادل سيدنا إبراهيم -عليه السلام-في شأن وحدانية الله وشمول قدرته، فيقول -سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ

(١) سورة الأعراف الآيتان ٦١، ٦٢.

(٢) سورة الأعراف الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٣) راجع أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي صـ ٢٢ بتصرف.

﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1]، فقال له إبراهيم وهو يحاوره ويدعوه إلى عبادة الله وحده: ربي وربك هو الذي ينشئ الحياة، ويُوجدُهَا من العَدم، وهو الذي يُميتُ الأرواح، ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه-سبحانه-يَدَّعى ذلك، فما كان من ذلك الكافر الجبار إلا أن قال: أنا أستطيع ذلك، فأنا أحي وأميت، أنا أملك أن أعفو عمن يستحق القتل فأحييه، وأقتل من أشاء أن أقتله، وقد كان في استطاعة إبراهيم-عليه السلام-أن يبطل قوله بأن ما يدعيه ليس من باب الإحياء والإماتة في شيء، وإنما ظلم ومكابرة وعدوان، ولكن إبراهيم لم يفعل ذلك، وآثر التزام الموضوعية فى حواره، وترك المجادلة في هذا الشأن، وأتى برد لا مجال للمكابرة فيه، بأن قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وعند هذه الحجة الدامغة غُلب وقُهر الذي كفر، ولم يستطع أن يتكلم[2].

وهذه المحاجة التي حدثت بين إبراهيم-عليه الصلاة والسلام-وبين الكافر المغرور الذي جادله في شأن وحدانية الله-تعالى- تُعد من ألوان الجدل العقلي، بمعنى أن يطلب كل واحد من المتحاجين أن يرد الآخر عن حجته، والعاقل هو الذي يقتنع ويعترف بالحق عندما يظهر به البرهان القاطع، أما الجاهل والمغرور فَيُصرُّ كل منهما على باطله، ويجحد الحق عن علم به.

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨.

(٢) راجع التفسير الكبير، الرازي م٤ جـ٧صـ٢٠ . ٢٥ باختصار وتصرف شديدين وراجع أيضًا تفسير ابن كثير جـ١صـ ٣٦٥.

٤ ـ أن يكون الهدف من الحوار الوصول إلى الحقيقة وإظهار الحق حتى ولو على يد الطرف المخالف:

وهذا ما نراه واضحًا في اختلاف الصحابة–رضوان الله عليهم، وفي محاوراتهم في كثير من القضايا:

أ ـ فعندما توقف "أبو بكر" أول الأمر في جمع القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ، وأقنعه "عمر بن الخطاب"، ما كان من الصديق إلا الموافقة.

ب ـ وعندما اختلفا في شأن قتال المرتدين الذين منعوا الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ، وتحاورًا في ذلك، حتى اقتنع عمر ـ رضي الله عنه ـ بوجوب قتالهم، ورجع عن رأيه ولم يتمسك به.

ج ـ وقصة المرأة التي رَدَّتْ عُمر ـ رضي الله عنه ـ ونبهته إلى الحق في خُطْبَتِه على مَلأ من الناس، فقال لها: "أصابت امرأة، وأخطأ عمر..."[(١)].

ويقول الإمام الشافعي–رضي الله عنه: "ما ناظرت أحدًا قط فأحببت أن يخطئ، وما كلمت أحدًا قط وأنا أُبَالي أن يظهر الله الحق على لساني أو لسانه... وَوَدتُ لو انتفع الناس بعلمي دون أن ينسب إلى منه شيء"[(٢)]، وهذا حول منهجه في الحوار وأدب المناقشة.

ويقول الإمام الغزالي: "فانظر إلى مُناظري زمانك اليوم، كيف يَسْوَدُّ وَجْهُ أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه، وكيف يخجل به، وكيف يجتهد في

(١) انظر: أدب الاختلاف في الإسلام، د/ طه جابر فياض صـ٥٠، كتاب الأمة، وراجع أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي صـ ٢٤.

(٢) المجموع: شرح المذهب، أبو زكريا محي الدين النووي جـ١صـ ٢٨.

مُجَاحَدَتِه بأقصى قدرته، وكيف يذم من أفحمه طول عمره، ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالعلماء في تعاونهم على النظر إلى الحق!!"[(١)].

تُرى ماذا يقول الإمام الغزالي اليوم–وهو المتوفى سنة ٥٠٥هـ–لو أدرك زماننا هذا، والذي أصبح كثير من أهله لا يعرفون شيئًا من أدب الحوار، وكل همهم التفاخر والتغلب على من يحاروهم بكل أسلوب مهما كان باطلًا؟!

٥ ـ التواضع والتزام أدب الحديث:

وذلك لتنظيم المحاورات والمجادلات التي تدور بين الناس، إذا التزم المتحاوران بذلك التواضع أدى إلى الوصول إلى الحقيقة وإلى الاتفاق، أما إذا كان مبعث الحوار الغرور والتفاخر والتباهي فلا يصل إلى شيء، بل تتولد منه الآثام والشرور، والعواقب السيئة، والعقلاء عندما يرون السفهاء والجهلاء يناقشونهم بالسيف لا بالكلمة، وبالتهديد والوعيد، فإنهم يمتنعون عن المحاورة ويُفوضُونَ أَمْرَهُمْ إلى الله.

فانظر إلى القرآن الكريم وهي يحكي لنا حوار سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ مع الهدهد وقد أعطى الله سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، إنه يتفقد جنوده، فلا يرى الهدهد من بينهم، فيتوعده، ويأتي الهدهد، فيقول لسليمان بكل شجاعة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[(٢)]، ويقبل سليمان ـ عليه السلام ـ بكل تواضع حُجة الهدهد، ويكلفه برسالة إلى ملكة سبأ التي أوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، ليدعوها إلى عبادة الله وحده، ولا تسجد

(٣) راجع إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي صـ ٢٢٧، ط الشعب.

(١) سورة النمل من آية ٢٢.

للشمس من دون الله، وتنتهي قصتها بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

تعقيب:

يرى الباحث من خلال هذه القصة التي حاكاها لنا القرآن الكريم بين سليمان ـ عليه السلام ـ وبين الهدهد: أن كل فرد في الأمة له الحق في الدفاع عن نفسه بكل حرية وشجاعة ليظهر حقه، فالهدهد لا يمنعه صغره من أن يرد على الحاكم؛ لأن العدل والأمان قائم في هذه الأمة ـ التي كان حاكمها سليمان–عليه السلام؛ ولوجود العدل والأمان، فكان على الحاكم الاستماع إلى رأى الهدهد بكل تواضع وفهم وهو يوضح رأيه بكل صراحة.

وهذه الصورة من التحاور بين سليمان ـ عليه السلام ـ والهدهد تقوم على التواضع، والتزام أدب الحديث، وإعطاء كل ذي حق حقه دون تكبر أو غرور.

٦ ـ إعطاء المعارض حقه في حرية التعبير عن وجهة نظره دون إجبار أو إساءة:

وهذا الأساس يؤكد لنا أن الخلاف في الرأي بين العقلاء لا يُفسد للود قضية، ولا يؤدي إلى فقدان الصداقة والمحبة بين الجميع.

ويؤكد لنا القرآن الكريم هذا الأساس من أسس الحوار الذي يُعطي الحق للمحاور أن يعبر عن رأيه بكل حرية في قصة حوار "إبليس" ـ عليه اللعنة ـ مع الله ـ عز وجل، عندما خلق الله الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه، ثم أمر الملائكة أن تسجد له سُجود تحية لا سجود عبادة؛ فإنه لا يكون إلا الله الخالق وحده ـ فسجد الملائكة كلهم أجمعون، وامتنع إبليس اللعين؛ غرورًا، وحسدًا، وعنادًا، زاعمًا أن منزلته ومكانته عالية القدر، ولا تسمح له أن يسجد لبشر خُلق من طين، وهو

(٢) سورة النمل من آية ٤٤.

قد خُلق من نار، فهو خير منه، وهنا يُصدر الله –تعالى–حُكْمَهُ العادل على إبليس بعد أن جاهر بالمعصية وأَصَرَّ عليها، أن يخرج من جنته أو سمائه، وعليه اللعنة والإبعاد من رحمة الله إلى يوم القيامة، ولم يقبل "إبليس" هذا الحكم بالسكوت والرضا، وأفسح الله له المجال لكي يُعَبَّر عن رأيه ولو كان كافرًا ومفسدًا، فيطلب إبليس من الله أن يؤخر موته إلى يوم البعث والحساب، ويجيبه الله–تعالى–إلى ذلك، ومرة أخرى لا يكتفي إبليس بذلك بل يستمر في مكابرته، فيهدد آدم وذريته بالغواية والإضلال عن طريق الحق[(١)]، وهنا يأتي الرد الحاسم من الله–عز وجل– بقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[(٢)].

٧ ـ احترام الرأي الصائب والاستجابة له، ما دام مبنيًا على الحجة المقنعة والمصلحة العامة:

وهذا الاحترام لرأي العقلاء المخلصين، ينبغي أن يتحلى به كل إنسان سليم الوجدان حتى لو خالفوه في رأيه؛ من أجل الوصول إلى الحقيقة التي يعود خيرها إلى الأفراد والجماعات[(٣)].

وهذا الاحترام من العقلاء لغيرهم ـ حدث ذلك ـ كما سبق ـ عندما اختلف "أبو بكر" و"عمر" ـ رضي الله عنهما ـ في جمع القرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفاظه في معركة اليمامة ضد "مسيلمة الكذاب" بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد

(١) راجع تفسير مفاتيح الغيب، الرازي م١٠ ص١٩، باختصار وتصرف شديدين وراجع أيضًا تفسير ابن كثير جـ٤ص ٣٠٥ ص ٣٠٦ بتصرف أيضًا.

(٢) سورة الحجر الآيتان ٤١، ٤٢.

(٣) انظر: أدب الحوار في الإسلام د/ سيد طنطاوي ص ٣١.

عارضه أبو بكر؛ لأن الرسول لم يفعله، ولكن بعد محاورات اقتنع أبو بكر بصواب رأي عمر ـ رضي الله عنهما ـ وأيقن أن في هذا مصلحة للإسلام، وحفظًا للدين.

أيضًا عندما عارض "عمر" أبا بكر في حرب المرتدين مانعي الزكاة، ولم يوافق أبا بكر إلا بعد مناقشات وحوارات اقتنع بعدها عمر بوجوب قتالهم.

والقرآن الكريم ساق لنا صورًا متعددة لمحاورات دارت بين عقلاء يحترمون الرأي والرأي الآخر، حتى ولو كان مخالفًا رأيهم. قال-تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾[1].

واعلم أن المقصود ذكر نعم الله-تعالى-على داود وسليمانن فذكر أولًا النعمة المشتركة بينهما ـ وهما من أنبياء الله -تعالى- وقد جمع الله لهما بين الملك والنبوة، ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم، ووجه النعمة فيها أن الله-تعالى-زنيهما بالعلم والفهم، ذلك عندما دخل رجلان على "داود" -عليه السلام: أحدهما صاحب زرع، والآخر صاحب غنم، واشتكى صاحب الزرع من أن غنم صاحبه نفشت في زرعه، فأكلته عن آخره؛ فكان حكم "داود" أن يأخذ صاحب الزرع غنم صاحبه مقابل إتلافها لزرعه، وعند خروجهما التقيا "بسليمان" عليه السلام فاخبراه بالحكم، فقال: "لو كان الأمر بيدي لحكمت بغير ذلك، ثم دخل على أبيه ـ داود ـ ومعه الرجلان وتأكد من الحكم فقال لوالده: يمكن أن يكون الحكم غير هذا، وهو أن نعطي الغنم لصاحب الزرع لينتفع بها، وأن يعيد صاحب

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٧٨، ٧٩.

الغنم زراعة ما أفسدته غنمه، فإذا عاد الزرع كما كان يأخذه صاحبه، وتسلم الغنم لصاحبها... وهنا يقول "داود": " القضاء هو ما قضيت به يا سليمان..."[١].

ومن هنا يرى الباحث أن داود اتجه في حكمه لمجرد التعويض لصاحب الزرع وهذا عدل فقط، أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعًا إلى التعمير، وهذا هو العدل الإيجابي في صورته النافعة البانية، وهو فتح من الله وإلهام يهبه لمن يشاء من عباده، فكل منهما كان على صواب، ولم يكن داود مخطئًا في حكمه، وصدق عز من قائل: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وفي هذه المحاورة أرى فيها الالتزام بأدب الحوار واحترام فكر الآخرين ـ الذي هو مفقود في كل ما نسمعه ونشهده في أيامنا هذه ـ ما دام يصدر عن حجة وعقل وإخلاص، ووجدنا النزول على الرأي الصائب، والرجوع إلى الحق فضيلة.

٨ـ تحديد مسألة الحوار وموضوعه تحديدًا دقيقًا لا مجال فيه للالتباس أو الخفاء:

وتحديد مسألة الحوار بحيث لا يكون فيها تعميم في الأحكام، حتى توضع الألفاظ في مواضعها السليمة؛ للوصول بالمسألة إلى الحق والعدل والصدق، والذي يتدبر القرآن يرى بوضوح كيف وضع كل لفظ في المعنى الذي يناسبه وحدد أحكامه تحديدًا دقيقًا، لا مجال معه للالتباس أو الخفاء أو الاضطراب، قال-تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[٢].

(١) راجع تفسير مفاتيح الغيب، الإمام الرازي م١١ جـ٢٢ صـ ١٦٨ . ١٧٠، باختصار وتصرف شديدين، وأيضًا تفسير ابن كثير جـ٥صـ ٢٠٧.

(٢) سورة الأنفال من آية ٤٢.

ولقد علمتنا تجارب الحياة أنه ما من أمة يكثر فيها عدد العقلاء الذين يقيمون حياتهم على التحديد الدقيق، والتنظيم السليم لأفعالهم وأقوالهم وأحكامهم إلا تقدمت هذه الأمة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وما من أمة يكثر فيها التعميم في الأحكام دون دليل، ويسلكون في حوارهم طريق الكذب وإلقاء الكلام دون دليل هذه الأمة يُقضى عليها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

٩ ـ أن يكون الحوار على الحقائق الثابتة والمعلومات الصحيحة لا الإشاعات الكذابة أو الأخبار المضطربة:

إن ما بني على الفاسد فهو فاسد، وما بُني على الصحيح فهو صحيح، فالحوار الذي يُبنى على الأكاذيب، وسوء الظن المتعمد والإشاعات نتيجته الخيبة والخسران، وقد مدح القرآن الذين ينطقون بالكلام الطيب، والقول الصادق[2]، فقال-تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾[3].

وقد ركز الإسلام على هذه الطريقة في كل أساليب الحوار والجدال من أجل الوصول إلى المعرفة من جهة، أو إلى الموقف الحق من جهة أخرى، وأطلق على ذلك كله "التي هي أحسن".

فهذه هي القاعدة والطابع الذي يطبع كل وسائل الحوار وأساليبه، قال-عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ

(١) سورة الرعد من آية ١١.

(٢) انظر: أدلة الحوار في الإسلام صـ٤٠.

(٣) سورة الحج آية ٢٤.

كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

وفيما حدثنا به القرآن الكريم من أسس الحوار ـ الجدال بالتي هي أحسن، وذلك لأن هناك طريقتين للحوار الفكري، أو للصراع في جميع مجالاته وهما: طريقة العنف، وهذه الطريقة تعتمد على مواجهة الخصم بأشد الكلمات التي تركز في إيلامه وإهانته وإهدار كرامته، وهذه الطريقة لا تنتج إلا مزيدًا من الحقد والعداوة والبغضاء والبعد عن كل الأجواء التي تقرب الأفكار للوصول إلى نتيجة طيبة، والطريقة الثانية التي يحدثنا بها القرآن وركز عليها في كل أساليب الحوار والجدال، هي طريقة اللاعنف، بمعنى: اللين، والمحبة، وكل الكلمات والأساليب الطيبة التي تفتح القلوب على الحق، وتقرب إلى مفاهيمه وأحكامه، وهذه الطريقة التي أطلق عليها الإسلام **"التي هي أحسن"** في كل وسائل الحوار؛ لأن الحسن وطريقة اللين تحوَّل الأعداء إلى أصدقاء، والجدال بالتي هي أحسن يتمثل في إتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الخصم بالفكرة التي يدور حولها الحوار.

ومن أفضل الأمثلة التي طرحها القرآن الكريم على ذلك جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن قال-تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[2].

فهذا يدل على القيمة الكبرى للإسلامن أنه ينطلق من الإيمان بكل الرسالات السماوية، والتصديق بجميع الأنبياء، ونحن لا نتنكر لما يؤمنون به ـ أهل الكتاب ـ

(١) سورة فصلت الآيات ٣٣: ٣٥.

(٢) سورة العنكبوت آية: ٤٦.

من كتاب وما يعتقدونه من رسالة؛ لأن الشعور المشترك ـ منا ومنهم ـ بالعبودية لله -سبحانه وتعالى، وعلى هذا الأساس يبدأ الحوار من قاعدة مشتركة يمكننا أن نقف عليها معًا ـ لأنها قضية أساسية ـ وبعد تحققها تؤدي بإمكانية الحوارات في القضايا الأخرى(١).

وبعد أن وضحت أسس الحوار وما يجب أن يُتبع في عملية الحوار ليكون حوارا ناجحا، ينتهي إلى النتيجة الحاسمة والهادفة التي من أجلها دار الحوار يمكن أن نلقي الضوء على أهمية الحوار وأهدافه؛ وذلك لأن الحوار هو مادة التقدم العقلي، وسأوضح في المبحث التالي.

(١) الحوار في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله صـ٣٥ وما بعدها بتصرف شديد، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٩٨٧م. وراجع أيضًا: منهج الحوار في القرآن الكريم، عبد الرحمن الحللي صـ٧.

المبحث الخامس

أهمية الحوار وأهدافه وأسس التنوير

المطلب الأول: أهمية الحوار وأهدافه

الإنسان يميل بفطرته نحو الحق والجمال، ويحب العدل والحرية والأخلاق الحميدة، وهذا ما يبشر به الإسلام.

وقديمًا قالوا: إن الإنسان مدني بطبعهن أي: لا يستطيع أن يعيش منفردًا أو منعزلًا عن الآخرين من بني جنسه، وكيف يمكن لجماعة أو طائفة أن تتكيف مع الحياة وتعيش في أمان وهي مشغولة بالصراع ضد الآخر في مجتمع واحد؟!

وبالرجوع إلى بدايات التاريخ يمكن أن تستكشف أن آلام المجتمعات البشرية لم يجلبها إلا أولئك الذين اختاروا طريق الشر بديلًا وحيدًا لمصالحهم وأهدافهم ونزعاتهم التسلطية، فلا يملكون إلا القتل والحقد والعداوة كأسلوب من أساليب التعبير عن مصالحهم، فقتل قابيل هابيل؛ ليؤكد ذاتيته بذلك، فكان القتل هو الأسلوب الذي يفهمه، فليس عنده مجال للكلمة والحوار والتفاهم ليأخذ ويعطي.

فلا يمكن لبني البشر أن يتقدموا في بناء حضاراتهم إلا وفق نواميس وشرائع اتفقوا عليها مع الزمن؛ ليكون التقدم سمتهم، والإنتاج أسلوب حياتهم، وذلك لم يكن يومًا إلا للأمم القائدة، حاضنة العقول المفكرة والألسن المحاورة والهمم الوثابة والمتحضرة للبناء والتشييد، وذلك عن طريق الحوارات والنقاشات والتداولات، أخرجت ذلك كله على شكل باقة من الإنجازات والمعالم الحضارية في مختلف المجالات الفكرية والمادة[1].

(١) حوار.. عِزة.. حضارة، سعيد بن سلطان الهاشمي صـ١٢ سنة ٢٠٠٢م.

فالحوار إذن هو نتاج التقدم العقلي والفكري، ومحور التقدم الحضاري والمادي والرقي بين الأمم والشعوب، فالحوار تواصل مع الذات في بدء انطلاقها إلى الهمم العاليةن واتصال مع الآخر سواء القريب أو الآخر البعيد في التبادل والتنافس والتميز.

فالحوار مع الآخر والإقدام عليه يعبر عن قوة الإيمان الذي يتحلى به المسلم وثقته بدينه ونفسه، خاصة إذا علمنا أن الإسلام ساد وانتشر في العالم بقوة الحوار والجدال بالتي هي أحسن مع الآخر.

وأهمية الحوار لا تقتصر على الساحات الثقافية والحضارية، ولا بين الأفراد والجماعات، أو في الندوات والمؤسسات، بينما غياب الحوار الأسري بين الزوج والزوجة، وبين الآباء والأبناء، وبين الأخوة وبين الأبناء وبعضهم البعض؛ فإن له خطره وضرره على كيان الأسرة وتماسكها، وعلى التعاون والثقة بين أفرادها، وقد حثنا الإسلام على إقامة علاقة صداقة ومحبة مع الأبناء، خصوصًا في سن المراهقة، وأن يكون في هذه السن مصاحبة بين الآباء والأبناء بوجود حوار وتفاهم بين الطرفين؛ لأن المصاحبة تعني احترام كل طرف رأي الطرف الآخر، والاستماع له وعدم تسفيه رأيه والتقليل من شأنه... كل ذلك سبق به الإسلام الغرب منذ حوالي أربعة عشر قرنًا من الزمان، ووضع أسلوب التربية التي تنشئ الأجيال السليمة القوية.

إذن الحوار وسيلة تخاطب وآلية عمل بين عموم عقلاء بني آدم والناس في حاجة ماسة إليه لإشاعة ثقافة المرحلة[1].

(١) الحوار... استخدمه لكي أسمعك، عيسى عبد القيوم.

هذا عن أهمية الحوار أما أهدافه **فللحوار هدفان أو غايتان:** إحداهما قريبة، والأخرى بعيدة.

أما غاية الحوار القريبة والتي تطلب لذاتها دون اعتبار آخر فهي محاولة فهم الآخرين، وأما الغاية البعيدة فهي إقناع الآخرين بوجهة نظر معينة(١).

وأهداف الحوار يلخصها الدكتور المهدي في ثلاث مستويات كما أقامها الإسلام، وهي:

١ ـ **المستوى الأول:** الحوار مع النفس، ومحاسبتها، وحملها على الجادة وطلب الحق، ويكون هذا في شكل حوار داخلي مستمر بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة؛ حتى يصل الإنسان إلى الاطمئنان.

فإن الإنسان الذي لا ينظر إلى نفسه، ولا يجري حوارًا مع خواطره ومشاعره، ويقيِّم سلوكه وفكره وفق مقتضيات العقل ومعطيات الدين، ويسلك سبيل المؤمنين، فإنه من باب أولى لا يستطيع أن ينظر في الآخرين، أو فيما حوله من قضايا وأحداث؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ حيث إن نقد الذات مقَّدم على نقد الآخرين، ومن جهل نفسه فهو عن غيره أجهل.

ولذلك فالإنسان بحاجة إلى أن يجري مع نفسه حوارًا يوميًا؛ لأن الحوار مع الذات يرصد الإنسان من خلاله تحركات عاطفته، ويسجل أبعاد شخصيته بين الحب والكره بين الجد والعبث.

وقد جاءت تعاليم الدين وهدى الرسول ﷺ وآثار السلف الصالح بتوجيهات تحث الفرد والأمة على ضرورة اتخاذ هذه الخطوة، وهي مراجعة الذاتن ونقدها

(١) الحوار الإيجابي ودوره في الحد من العنف، أ. د/ محمد المهدي أستاذ الطب النفسي، جامعة المنصورة، نقلاً من جريدة المسلمون عدد ٣٣٧ ٨ محرم ١٤١٢هـ.

ومحاسبتهاح لتتمكن من تحقيق الأهداف السامية التي يعيش الإنسان على وجه الأرض من أجلهان وهي الخلافةن والعبادة، والعمارة، ومحاسبة النفس يدل على وجوبها قوله-تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾[2].

وقول الله-عز وجل-في الآيات السابقة يأمر العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك هو المقصود بمحاسبة نفسه، والمقصود بالنظر الذي أراداه الله-تعالى-من عبده هو ما يوجبه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وهل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟

ومما جاء من آثار عن السلف في ذلك، ما قاله عمر بن الخطاب-رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، ويومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية".

وقال الفضيل بن عياض: "المؤمن يحاسب نفسه، ويعلم أن له موقفًا بين يدي الله-تعالى، والمنافق يغفل عن نفسه، فرحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول ملك الموت به".

(١) سورة الحشر الآيتان ١٨، ١٩.

(٢) سورة الزمر آية ٥٤.

٢ ـ **المستوى الثاني**: الحوار بين أفراد المجتمع الإسلامي وفق إجتهاداته المختلفة عملًا بمبدأ: "التعاون في الاتفاق والاعتذار في الاختلاف"؛ حفاظًا على وحدة الصف الإسلامي.

إن القرآن الكريم كتاب حوار مفتوح لا حدود لأبعاده وآفاقه، وأول نص قرآني ورد بأسلوب التحاور العلمي ـ القائم على الحجة والبرهان والدليل، حاور به جبريل -عليه السلام-محمدا ﷺ حوارا قرآنيا، بدأ به رسول الله ﷺ مع الملائكة في تبليغ وحي الله ورسالة الحق والهداية، فدار بينهما هذا الحوار: قال جبريل الأمين: اقرأ. رد محمد ﷺ: ما أنا بقارئ، وتكرر هذا الحوار ثلاث مراتن حتى تلا جبريل-عليه السلام-على محمد ﷺ، أول خمس آيات قرآنية من رب العالمين فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1]، وهذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم، وهو بذلك يجسد أسمى آيات المجد والرفعة والتشريف للحوار العلمي وأهله.

وبذلك جاء الإسلام ليكون دين الحوار، ويطلق للفكر أن يفكر في كل شيء وليحاور الآخرين على الحجة والبرهان والدليل، وليعلم البشرية كيف يمكن الوصول إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الطيبةن والأسلوب الجميل، والموعظة الحسنة، وعرف المسلمون من خلال القرآن الكريم منهج الدعوة وأسلوب الحوار الذي يحترم الإنسان، ويعترف بفكرهن ويقوده من خلال الحوار الفكري إلى مبادئ الإيمان التي يدعو إليها، وجعل الله-تعالى-الدين الإسلامي آخر الرسالات الإلهية ونبيها محمد ﷺ وكتابها القرآن الكريم؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النورن وتعلم الناس كيف يكون الحوار طريقًا للفكر والعقيدة والعمل.

(١) سورة العلق، الآيات ١: ٥.

ويؤكد لنا القرآن الكريم أن الاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء إلهي أزلي مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض، قال الله-تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، وآلية تعامل الإنسان مع هذه القضية هي الحوار، بحيث يقود أطرافه إلى فريضة التعارف، ويجنبهم مخاطر الشقاق والتفرق، ودعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة بالتي هي أحسن؛ لمعرفة ما هو أقوم للجميع.

٣ ـ **المستوى الثالث**: الحوار بين المسلمين وغير المسلمين الذي يشتركون معًا في إعمار الكون، وهو حوار يجري وفق مبدأ المدافعة الذي يمنع الفساد وينمي عوامل الخير.

وقد سلك رسول الله ﷺ المنهج القرآني في محاورة المشركين، ولا سيما أهل الكتابن الذي أمره الله أن يخاطبهم خطابًا مميزًا سمته العدل والمساواة والحسنى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

وفي المدينة لما انتقل إليها رسول الله ﷺ، كان له حوار ومعاهدات ومواثيق مع سكانها، والصحيفة وثيقة تاريخية.

(١) سورة المائدة آية: ٤٨.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٦٤.

وكان للرسول ﷺ حوار مع اليهود الذين أقرهم على دينهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وكما كانت له معهم علاقات ودية، فقد لبَّى دعوة للطعام عند أحدهم، واقترض من بعضهم، ومات ودرعه مرهونة عند آخر منهم.

وكما كانت علاقات مع يهود المدينة وحوارات، أيضًا كان له ﷺ حوارات مع وفد من نصارى نجران، وفدوا إليه بعد أن دعاهم إلى الإسلام، فاستقبلهم وأكرم ضيافتهم، وأقاموا بجواره مدة يحاورهم ويحاورونه، في حرية كاملة ـ وهم لم يتخلوا عن دينهم ـ ثم عادوا إلى ديارهم آمنين؛ لأنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

وغير ذلك من الحوارات التي أدارها الرسول الكريم من خلال الرسائل التي بعث بها ﷺ إلى مقوقس مصر، وكسرى الفرس، وهرقل الروم، وملك الحبشةن وغيرهم يدعوهم فيها إلى الإسلام، وقد حفظت لنا كتب السيرة ما جاء عن هذه الرسائل، وما فعله الرسول الكريم من دعوته لهؤلاء الملوك ذلك؛ تكريمًا للحوار، وحرصًا على تبليغ رسالته.

ومن أطرف الحوارات التي سجلها لنا القرآن الكريم، الحوار الذي دار بين الرسول الكريم ﷺ والمرأة التي جاءت تشكو زوجها ـ الذي ظاهر منها، والطريف في الحوار أنها تحاور الرسول ﷺ وتلح في محاورته؛ لأنه كان يجيبها في كل مرة تسأل بأن ليس لديه شيء، ونزل القرآن يبسط قضيتها ويقرَّ رأيها، ويبين حكم الظهار، قال الله–تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾[2].

(١) سورة البقرة من آية: ٢٥٦.

(٢) سورة المجادلة الآية: ١.

والفخر الرازي استنتج أن الجدال في تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حرفة الأنبياء، وأن التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار(١).

تعقيب:

الحوار القابل للتفاعل أخذًا وعطاءً بين الطرفين، أو الأطراف المتحاورة، يكون ذا بعد حضارى، وفي الفكر الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية نجد أن حرية العقيدة من أكثر العوامل الرئيسية المساعدة لإقامة مثل هذه الحوارات الناجحة، مع استخدام العقل وروح التسامح والعفو، كل ذلك يساعد على إقامة حوار بناء يستطيع الفرد من خلاله اتخاذ قراره الفكري، فالموضوعية تتجلى في الاستعداد التام للتخلي عن جميع التصورات، وتبنى نقيضها إذا ما اتضح أن الحق مع الرأي الآخر، ثم بعد ذلك يأتى دور العقل في بناء المجتمع والتنوير.

المطلب الثانى: أسس التنوير

يعد التنوير مطلبًا من أهم مطالب العصر، لدَى كثير من الشعوب التى تخلفت كثيرًا عن ركب العلم والمدنية، وعانت كثيرًا من غياب العقل وسيطرة الأساطير والشعوذات، وباتت تبحث عن حقها في الحرية والمساواة والعدل وحظها من العلم والمدنية والرخاء.

ولا يختلف اثنان أن الشعوب كلها في حاجة إلى التنوير، مهما ازداد حظها منه أو قل، وخاصة الشعوب المستنيرة؛ لكى تزداد علمًا ومدنية، وحتى تحافظ على الأقل على ما أحرزته من تقدم إن لم تضف إليه جديدًا.

أما الشعوب الأقل استنارة فهى تحتاج إلى التنوير؛ لكى تلحق بركب العالم الذي لا يقف ولا ينتظر المتخلفين عنه.

(١) مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم، الهادي حمو صـ ٢٩٤، مطابع النهضة.

إذن ما هى حقيقة التنوير الذي نحتاجه طريقًا لمزيد من العلم والتنمية يعيد للأمة الإسلامية مكانتها الرائدة والإمامة لحضارة العالم؛ تحقيقًا لقول الله-تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[١].

والمخلصون لأمتهم الحريصون على تنويرها تنويرًا صحيحًا يحرصون أول ما يحرصون على جمع الكلمةن والاتفاق على المفهوم الأساسى لهذا التنوير، والأسس التى يجب أن يقوم عليها؛ ليتحرك الكل لتحقيقه برضا كامل وإرادة تامة لتحقيق هذا التنوير.

ولذلك كانت خطة الدعوة الإسلامية الأولى التى انبعثت من القرآن الكريم أن تقنع الناس أن ما جاء به الإسلام يمحو ظلام الجاهلية وظلمات التخلف، إذ يقول -تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

وقد سمى عمر-رضي الله عنه-القرآن نورًا استنار به محمد ﷺ، واهتدى به واستنار به صحابته، واهتدوا-رضوان الله عليهم.

وذلك عندما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه غداة وفاة رسول الله ﷺ قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يديرنا ــ يريد بذلك أن يكون آخرهم ـ فإن يك محمد ﷺ قد مات فإن الله قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به، هدى الله به محمدًا ﷺ"[٣]، يقصد القرآن.

(١) سورة آل عمران من الآية ١١٠.

(٢) سورة المائدة الآية ١٦.

(٣) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك-رضى الله عنه. كتاب الأحكام. باب ٥١.

إذن نبين المفهوم الحقيقى للتنوير والغرض منه والوسيلة المؤدية إليه، ولنبين مفهوم المتأثرين بالثقافة الغربية، والذين أشربت عقولهم المفهوم الغربى للتنوير بحكم ثقافتهم تلك؛ لنجتمع جميعًا على كلمة سواء مهما تعددت ثقافاتنا، بل أديانا.

سنختار هنا تحديد مهمة التنوير والتى حددها الأستاذ الدكتور "مراد وهبة"، ويتفق معه دعاة التنوير بلا شك.

يقول في كتابه "مدخل إلى التنوير": "خلاصة القول: إن مهمة التنوير الأساسية لم تكن معرفة طبيعة الإنسان، وإنما تغيير المجتمع من أجل تغيير سلوك الإنسانية، على أسس عقلانية ومادية"(١).

فهدف التنوير عند الجميع -إذن- هو تغيير المجتمع، ومع تحفظنا على قول الدكتور مراد وهبة أن يكون هذا التغيير على أسس مادية، فإن الهدف هو تغيير المجتمع بإقرار سلطان العقل وتحريره؛ فإن الأسس المادية تبدو هامشية حتى في كلامه إذ يقول: "إن ثمة فجوة حضارية بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ليس في الإمكان عبورها من غير مرورها بمرحلتين: **أحداهما**: إقرار سلطان العقل، **والأخرى**: التزام العقل بتغيير الواقع لصالح الجماهير"(٢). ولذا فالسبيل إلى التنوير إذن هو تحرير العقل.

ويستشهد الدكتور مراد وهبة بما قاله هنا المفكر المسلم الجزائرى "مالك بن نبى" في كتابه "شروط النهضة" ما مفاده أن ثمة شرطين للنهضة: **شرط سلبي**: هو

(١) مدخل إلى التنوير، د / مراد وهبة، صـ٣٠، دار العالم الثالث. مصر. دار النهج الجديد. الكويت. الطبعة الأولى ١٩٩٤.

(٢) المصدر السابق، صـ٧.

تدمير الانحلال، وهذا ما قام به الأستاذ الإمام محمد عبده، **والشرط الثاني**: تحديد منهاج جديد للتفكير.

وإذا كنا نتفق على أن التنوير هو تغيير المجتمع عن طريق تغيير سلوك الأفراد معًا، ولا يتم ذلك إلا بالقضاء على التخلف، وتقديم منهج جديد للتفكير وبناء الإنسان، وكل ذلك لا يتم إلا بتحرير العقل، والوسيلة التى تحقق تحرير العقل: أن يكون حرًا ليقضى على التخلف في كل مظاهرة، ويضع المنهج الجديد للتفكير والنهضة في شتى جوانبها في السلوك، والعلم، والسياسة، والاقتصاد.

الخاتمــة

مـن خـلال البحـث يمكـن القـول بأن العقـل مـا يُعقـل بـه حقـائق الأشـياء، وبفضل ضـرورة العقل يُعلم وجـود الله –تعالى– وأسماؤه، وصفات كماله، ونعـوت جلاله، وبـه أيضًا امتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه، وبه أيضًا يقـاوم الهوى، ويحـث على الفضائل، وينهى عـن الرذائل.

يمكن القول –أيضا–من خلال البحث– بأن الحوار إذا لم يلتزم في كل أحواله وصوره بأسس الحوار وآدابه، قد يؤدي إلى نتائج سلبية، والحوار السلبي مثل:

١ ــ الحـوار التعجيـزي: وهـو لا يـرى أحـد طـرفي الحـوار أو كليهمـا إلا السـلبيات والأخطاء، وينتهي بلا فائدة، ويؤدي إلى الإحباط لأحد الطرفين أو كليهما.

٢ ــ الحـوار المعـاكس: وهــو يعتمــد علــى الرغبــة في إثبــات الــذات بالتمييــز والاختلاف، أي: عكسك دائمًا، ولو كان ذلك على حساب جوهر الحقيقة.

٣ ـ حوار الصمت السلبي عنادًا وتجاهلًا، وذلك رغبة في مكايدة الطرف الآخر، بمعنى: أن يلجأ أحد الأطراف ـ المتحاورة ـ إلى الصمت دون التعرض للمواجهة؛ وذلك عنادًا وتجاهلًا لمن يحاوره.

النتيجة الإيجابية التي توصلنا إليها من خلال رحلة البحث:

١ـ الحوار الإيجابي الصحي هو:

الحـوار الموضـوعي الـذي يـرى الحسـنات والسـلبيات، ويـرى العقبـات ويـرى أيضًـا إمكانيات التغلب عليها.

الحوار المتكافئ الذي يعطي لكلا الطرفين حرية التعبير والإبداع الحقيقي، ويحترم الرأي الآخر.

يعرف حتمية الخلاف في الرأي بين البشر وآداب الخلاف وتقبله.

حوار واقعي يتصل إيجابيًا بالحياة اليومية الواقعية

حوار موافقة، حين تكون الموافقة هي الصواب، ومخالفة، حين تكون المخالفة هي الصواب.

٢- الهدف النهائي للحوار هو إثبات الحقيقة حيث هي، لا كما نراها بأهوائنا.

٣- الحوار لابد أن تسوده المحبة والمسئولية والرعاية وإنكار الذات.

٤- ومن مهمات العقل التنوير وهو تغيير المجتمع عن طريق سلوك الأفراد معًا.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: كتب الحديث والسنة المطهرة.

ثالثًا: المصادر والمراجع الأخرى:

١- (البصرى) أبو الحسن، **أدب الدنيا والدين**، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، ١٢٩٩هـ.

٢- (ابن سينا) أبو الحسن على الحسين بن عبد الله، **النجاة**، القاهرة ١٢٩٧هـ.

٣- (ابن كثير) الإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، مكتبة الصفا، ١٤٢٣هـ — ٢٠٠٢م.

٤- (الجرجانى) السيد الشريف، **التعريفات**، تحقيق وتعليق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٥- (الجوزى) أبو فرج بن، **ذم الهوى**، الناشر: دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.

٦- (الجوزية) ابن قيم، **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، دار ابن الهيثم، طبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٧- (الحللى) عبد الرحمن، **منهج الحوار فى القرآن الكريم**.

٨- (حمو) الهادى، **مواقف الحجاج والجدل فى القرآن الكريم**، مطابع النهضة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٢م.

٩- (الدردير) أبى البركات أحمد بن محمد بن أحمد، **الخريدة البهية فى العقيدة الإسلامية**، إعداد م. د/محمد ربيع محمد جوهرى، الناشر: مكتبة الإيمان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ — ٢٠١٠م.

١٠- (الرازى) الإمام فخر الدين، **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ — ١٩٩٠م.

١١- (الشافعى) أبى شامة، **مجموعة الرسائل**، مطبعة كردستان العلمية، ١٣٢٨م.

١٢- (طنطاوى) د/محمد سيد، شيخ الأزهر، **أدب الحوار فى الإسلام**، نهضة مصر للطباعة والنشر، طبعة ١٤٢٢/١٤٢٣ هـ — ٢٠٠٢/٢٠٠٣م.

١٣- (عبد القيوم) عيسى، **الحوار... استخدمه لكى أسمعك**.

١٤- (الغزالى) الإمام أبى حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، مكتبة فياض، ١٩٩٧م.

١٥- (الغزالى) الإمام أبى حامد محمد بن محمد، **معارج القدس**، دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.

١٦- (فضل الله) محمد حسين، **الحوار فى القرآن الكريم**، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٧م.

١٧- (فياض) د/طه جابر، **أدب الاختلاف فى الإسلام**، كتاب الأمة (سلسلة الكتاب) سنة ١٩٨٤م.

١٨- (الفيروز آبادى) العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب، **بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٤م.

١٩- (الفيروز آبادى) العلامة اللغوى مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

٢٠- (القرضاوى) د/يوسف، **العقل والعلم فى القرآن الكريم**، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

٢١- (كرم) يوسف، **العقل والوجود**، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
(محمود) د/عبد الحليم، **الإسلام والعقل**، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٢م.

٢٢- (المسلمون) جريدة، عدد ٣٣٧، ٨ محرم ١٤١٢ هـ.

٢٣- (مكرم) د/عبد العال سالم، **الفكر الإسلامى بين العقل والوحي**، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.

٢٤- (مكى) أحمد، **أدب البحث والمناظرة**، جمعية النشر والتأليف، ١٩٣٥م.

٢٥- (المهدى) أ. د/محمد المهدى أستاذ الطب النفسى، جامعة المنصورة، **الحوار الإيجابى ودوره فى الحد من العنف**، جريدة المسلمون عدد ٣٣٧، ٨ محرم ١٤١٢هـ.

٢٦- (نصار) د/محمد عبد الستار، **دراسات فى فلسفة الأخلاق**، ١٩٨١م.

٢٧- (النووى) أبو زكريا محى الدين، **المجموع شرح المذهب**، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، طبعة أولى، عام ١٤١٧هـ.

٢٨- (الهاشمى) سعيد بن سلطان، حوار... عزة... حضارة، ٢٠٠٢م.